الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٩ — ٦ رجب سنة ١٣٥٧ — أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٧٩٤	العدل والانتقام	للكاتب ألبرت ريتشارد ويتجي ...	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة .. ...
٨٠٠	هيكل عظمي	لشاعر الهند وفيلسوفها رابندرانات تاجور	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج . ...
٨٠٥	الخادم	للكاتب العظيم سيجيوتوف	بقلم الأديب نصري عطا الله سوس
٨٠٩	الآلية المكسورة	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
٨١٦	موت الحب	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٨٢٣	مفارقات الشارع	للكاتب الأمريكي دون ماركيز ..	بقلم الأديب محمد محمود دوارة . ...
٨٣١	ذكرى حب	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب عبد الحليم محمود العشيري
٨٣٨	ابن تاراس بولبا	للكاتب الروسي غوغول	بقلم الأديب ابراهيم زين الدين ...

العدل والانتقام

لكاتبة انجليزية مشهورة ونجمة
بقلم الأستاذ محمد السباعي

لقد علمت ذلك السر العظيم من شفتي الشقي الصريع وهو على فراش موته، فلو أنني أذعته، وهو ما يسوغه العدل والشرف، لضاعفت هذه الاذاعة عبء الكرب والبلاء على الفئة الذين هم أحب خلق الله إليّ وأعزهم على نفسي، والذين حسبهم ما هم فيه من هم وغم. فهل كان يليق بي أن أجلب الخزي والعار والفضيحة والارتباك على جميع أولئك الذين كانت تربطني بهم أواصر الحب والوداد، ولهم في عنق أطواق وأرباق، لكثرة ما أولوني من منن وآلاء؟

لقد تدبرت الأمر وعرضته على ضميري أثناء كان الشقي الصريع يؤدي اعترافه ساعة النزع، فرأيت الطمع والاغراء ومعهما العدل نفسه في صف، ولكنني رأيت الحب والأمانة وعرفان الجميل في صف آخر. فكانت هذه أغلب على قلبي وأحوز للبي. ولما انجلى غبار هذه المعركة العنيفة عن فؤادي توهج ضميري بشعاع مؤنس من الفرح والسعادة، وبكيت سروراً إذ جعلت أحمد الله الذي وفقني إلى اختيار تلك الخطة. لقد قتل ولكنه كان من قبل قاتلاً.

كنت أعلم أن هذا الحي من أحياء لندن، مأهولا بالأعيان وذوي المكانة العالية، وأن الكثرة الغالبة من ساكني قصوره السيدة ومنازله الفاخرة ذات الحدائق الناضرة والبساتين المشرقة، ويظهرون أمام المجتمع في أبهى الحلل وأجمل المفاتن، متخذين لزينتهم أغلى الحلى وأرفع المحاسن، ويقيمون الليالي الساهرة والأمسيات الراقصة ويحيون حفلات الشاي والكوكتيل، تتلوها المآدب والولائم فترمقهم الأعين بالاجلال والاكبار، وتؤخذهم الأنفس بين الغبطة والدهشة والحسد والانبهار ... من كان يظن أن هؤلاء السادة وأولئك السيدات ليسوا سوى مجرمين وجناة وآفاقيين متزيين بأزياء الأعيان واللوردات والبارونات. منهن من تؤجر للاتجار بالسموم والمخدرات، ومنهم من يؤجر على القتل بدراهم معدودة.

وأظن هذه السيدة التي فقدت زوجها غدراً واغتيالا هي التي سمعتها في أحد أركان الحانة تخاطب رجل الأسرار بصوت خافت وأنفاس مختنقة وعينين دامعتين وقلب دامٍ:

«أين زوجي يا بوردرو؟ رد عليّ زوجي! كيف وقفت جوف الليل تنظر إليه وهو يقتل؟ بل كيف أفلت منك الخائن الذي جناها؟ فأراد بوردرو أن يتناول يد السيدة التي تخاطبه، ولكن تلك السيدة المجهولة انثنت عنه ووضعت قناعها ثانية واتكأت على المنضدة. وكان وجهها ممتقعاً شاحباً كما بدا لي من وراء القناع. وأما عيناها وأظنهما كانتا في العادة حلوتين رفيقتين فقد وجهتا إلى بوردرو نظرة تفجع وتوجع، وتأسف وتأفف، لم يطقها بوردرو على جفوته وقسوته وجموده وكنوده وجحوده، فزوى وجهه عن تلك النظرات اللاذعات. وكان على مقربة منا رجل وامرأة يتحادثان فقالت المرأة للرجل:

— نعم لك أن تلق بي في الهاوية ، أو تدعني أتدهور من حالق إلى الدرك الأسفل من حضيض الحياة بعد أن استغللتني أنت وأصحابك

— لقد أحسنت إليك بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلا ثم جاء دور غيرك . فعليك أن تخضع لأحكام القضاء والقدر ، وتلك الأيام يا ليلى نداولها بين الناس ، فلا تطمعي في أنصبة الناس بعد أن نلت نصيبك

ليلى — سأعمل على فضيحتكم ، وأظهر العالم على طريقة إجرامكم وكيف تأخذوننا نحن الفتيات من السوق فقيرات فتخلعون علينا ألقاب الشرف الكاذبة بين لادى هاجرة لوردها ، وبارونة من بارونها هاربة . ثم ...

فقال لها : إنك تعرفين الثمن الذي تدفعينه نقداً وعداً إذا شئت أن تستمتعي بتلك الخيانة

ثم غرق صوتهما في عباب الضوضاء . وسمعت السيدة المقنعة تعود إلى تعنيف صاحبها الذي كانت تدعوه بوردرو قالت :

— لم تقل لي يا بوردرو الأمين ، يا بوردرو الوفي كيف أفلت منك الخائن الذي جناها ، وأنت بطل بيتنا ومانع حوزته ، وأنت الذي كنت ترى أنك تضحي حياتك في سبيلنا ، وأنت الذي كنت مناط حبنا وثقتنا ..؟

ليلى — أتريد أن تخنقني ، إنك لا تملك ذلك في حانة عامة ، إن هذا المكان حافل بالشرطة السرية ورجال الخفية من كل لون ورتبة ودرجة ، ولعل واحداً أو اثنين أو أكثر يلتقفون الأقوال من أفواهنا . لقد خلعت عليّ العقود والجواهر والخواتم والأقراط ، فحليت بها جيدي وصدري وأناملي ومعاصمي وأنا لا أعلم أنها زائفة إلا بعد أن تخليتم عني واضطررت لرهن بعضها وبيع البعض الآخر ، فإذا بها لا تساوي فلساً . لقد أرغمتني على الاتجار بالمخدرات سنوات عدة بعد أن طليتني ودهنتني حتى صرت كواحدة من نجوم المجتمع اللامعة . فخرج الرجل الذي كانت توجه إليه هذا اللوم بالصمت عن لا ونعم !

وتأملها بعد أن سمت اسمها وهو : ليلى[1] وأنعمت النظر في جسمها الذي لا فضول فيه فأسفت على ما أصابها ، ولم أكن أملك لها خيراً ولا شراً

وبعد أن طال صمت الرجل عقيب تهديده انفجر مرة أخرى وقال لها : عهدي بك رزينة يا ليلى كأختك فيليس[2] ولكنك الليلة تعملين بالمثل السائر : « من راقه بدنه ، كشف عن محاسنه ، ومن أعجبته رنات صوته رفع عقيرته » وقد اخترت لرفع عقيرتك مكاناً عاماً ، وهو فخ لأمثالي وأمثالك ، ومصيدة ...

وفي تلك اللحظة فتح باب الحانة وظهر فيه سواد مستر ميكائيل آرلين المؤلف الشهير ، فخفت أن يتعرف عليّ فيهتك ستار التخفي الذي كنت منزوياً وراءه . فحولت وجهي ناحية أخرى وإن كنت واثقاً من تجهيل معارفي في الزي الذي كنت به على ألصق الناس بي . ولحسن حظي رأيت مستر ميكائيل آرلين قد اتجه إلى طائفة من الشباب اللاهين كانت تجمعهم تلك الحانة للعبث واللهو والمجون . وكان ذهن هذا المؤلف سريع الالتفات إلى معاني

(١) نبتة زهرة بيضاء عبقة
(٢) اسم الثرى بمعنى غصن

المرأة . وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ولا سيما بعد أن نشر قصة « حتى الدودة تستطيع أن تسعى لرزقها » فقد آلت عواطف صديقاته من بنات إسرائيل ... حتى الدودة تستطيع أن تسعى . لقد كانت قصة بشعة . إنها تدور حول قصر فاخر تقطنه أسرة إسرائيلية غنية ، فدعى إليه مرات فنشيه زائراً وراقصاً ومقامراً ومغازلاً ، فاتضح له أمر عجيب وهو أن أهل القصر يعرضون شرائط صور متحركة فيها مناظر لا توصف ، وقد يتلو العرض نوع من الأرجيات الأغريقية والرومانية ، وقد أثرى صاحب الدار وكان اسمه ليفيكو فصار لورلفيكار أوف جيتار بفضل من سبقوه إلى مراتب المجد أمثال سيمون ميكلنبرج وأولمان مندلبرج وولف ساندولباوم وناتان كيرزون هاندلسون وجوبلم مايزنشتاين

فلم يشغل مرأى المؤلف بالي أكثر من لحظة ، ثم تغلب صوت المرأة المقنعة على صوت من عداها وهي تقول لبوردرو :

— لماذا دخلت بيني وبين زوجي ؟ إنك لم تهدنا سوى الحزن والكمد والندم . لقد مكنت منه عدوه حتى قتله .. الندم الأليم جزاء ودنا ورحمتنا . ألم تك طفلاً يتيماً أول ما رأيتك ورآك هو الذي كان غاية في البر والنبل وحسن النية . وقد كان من رأيه إرسالك إلى جهة أخرى ولكني سألته أن يبقيك حماقة مني وسفها ، وادعيت أنك تحبنا وصدقناك

فقطع بوردرو سمته بكلمة واحدة فقال :

— لقد كنت صغيراً لا أعي شيئاً ولا أميز الخير من الشر ، ولا أفرق بين الجرة والنمرة .

فقالت السيدة :

بالرغم من صغر سنك إذ ذاك ومن ضعفك وانفرادك فلقد كنت توجست شراً في استيقائك وبلاء . ولقد قرأت أسارير وجهك ونظرت في أعماق عينيك فرأيت فيها شواهد النكر ودلائل السوء ، وقد وقع المحذور والمكروه وكنت عليمة بوقوعه .

فقال بوردرو : فَلِمَ لم تدفعي عنه مادمت عليمة بوقوع المكروه كما تزعمين ؟

فقالت : ولِمَ لم تمت أنت ، إذ أصابك الجدري وكنت أعودك بنفسي وأنت في هذيان حُمَّاك لا تعرفني حتى جعلت تناديني وأنا بجانبك . فكل ما أصابني منذ ذلك الوقت هو جزاء العدالة ، أصاب قلبي الخبيث ، قلبي الغيور الخبيث . ويلي ثم ويلي ، لقد لقيت العقوبة ، لقيت أصرم العقوبة ، فهاك زوجي يتخبط في دمائه ، قد قتل وأنت بجانبه ولكنك لا تريد أن تدل على قاتله .

في هذه اللحظة الرهيبة نظرت فلم أجد لِبيلي ولا صاحبها أو خانقها الذي كان يتوعدها بالقتل إن هي وشت به وجماعته وعصابته ، وكان الشرطيان بيل شاندلر وسيابك موليجان أحدهما يختال في ثوبه الرسمي ، والآخر في زي أهل الفراغ والجدة ، وهما يراقبان « الطيور الجارحة » من القتلة وأهل السطو الخفي والمتجرين بالمخدرات . دق ناقوس الرقص إيذاناً بنهاية اللف والدوران والجاز بند في الدور الأول . وبعد هنيهة عادت الموسيقى إلى التوقيع وامتلأت الحلقة المستديرة بالراقصين وبدأ تانجو من نوع جديد وبدأ كذلك اللمس والهمس والغمز واللمز ووزن الخطى على الأنغام

وفجأة تقدم خادم إلى بيل شاندلر الشرطي الرسمي وهمس في أذنه خبراً هاما فذهب الشرطي إلى خزانة المسرة (كشك التليفون) ثم عاد منه مسرعا وخرج

إلى الطريق . فسأله صاحب الحانة مستر ماكميردو ، أشهر « بوص » فى ماربل آرش قائلا :

— حادث مهم ياحضرة الكونستابل ؟

— أى نعم ، فقد قتلت الفتاة ليلى أوميجان هايل وهى الآن جثة هامدة على إفريز الشارع ، وقد طعنت فى قلبها بخنجر منذ هنيهة كأن قاتلها كان ينتظر خروجها من الباب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يصغى إلى كل كلمة تدور فى الحديث بين صاحب الحانة وصاحب الشرطة ، يكاد يرشف الألفاظ حرفاً حرفاً ، ويتتبع المعانى خبراً صرفاً ، وحتى لتراه وهو يستمع إلى حديثهما عن المرأة القتيل ، واليد الخفية التى طعنت ، والقلب الصخرى الذى قسا ، والفكر الخبيث الذى دبر مصرع المرأة ، كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا يصغى إلى حديث . ولا ريب فى أنه كان يضمر وضع قصة طريفة يجمع لها الشاهد ويحشد لها الأقاويل كالنحلة التى تجنى من كل زهرة قطرة ، ثم يزين له الخيال ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع مالم يسمع . وكان يستزيد مما يسمع وهو مصغ ملذوذ فيحمل صاحب الحانة والشرطى على الاطناب والاسترسال ، حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال

ولكن الشرطى كان عجولاً . بعد أن أنهى خبر الفاجعة إلى المركز العام لم تبرأ ذمته ، ولن تبرأ حتى يجمع الأدلة ويدونها فى كناشته . كذلك المؤلف ميكائيل آرلن فقد أخذ يدون ما سمع فى مفكرته ...

وإنه لكذلك منهمك فى كتابة ما وصل إلى سمعه وذهنه من الأسماء والوقائع ، إذا بمستر دارك نايط أوجفاردر ، ذلك المحقق الخطير الذى يربض فى «فيلا سافوار تروث» بأعلى قمة فى مقاطعة نورفولك ولا يرد عاصمة الديار إلا نادراً . ولا يكون وروده إلا مؤذناً بأمر من أهم الأمور فى عالم الجنايات الخفية ، عالم الظلام والجريمة ، وقد استفاضت شهرته فى عواصم أوربا وأمريكا الشمالية حتى كسفت شمسه كواكب الشهرة العالية التى عرف بها أرسين لوبان ورالف وموريس هيوبت ... فلم يكن يضارعه أو يفوقه قليلاً سوى أستاذه ومرشده ومعلمه الأول شيرلوك هولمز ، ولكن هولمز قد قضى نحبه قبل موت صاحبه بأعوام وقد خلا الجو لدارك نايط أوجفاردر فلا مزاحم ولا مبارز ، وقد ساعدته طوالع الحظ السعيد فأظهر حذقاً ومهارة تكاد تكون من المعجزات ، لا من نبوغ الفن فى كشف الجرائم

فعقدت النواصى على الاعجاب بدارك نايط وصار بطل الساعة ، وخصم اسكوتلاند يارد الألد ، لأن دأبه أن ينقض مايبرمونه وينفى مايثبتونه ، ويكذب ما يقطعون بصحته ولا يبالى ، لأنه لا يلبث أن يقيم الأدلة الحاسمة على صدق نظره وصواب رأيه . ومن ذلك لم تتولنى دهشة ولم يأخذنى عجب إذ رأيت هذه السيدة المقنعة تلجأ إلى دارك نايط فتعهد إليه بقضيتها ليكشف بقوة ذكائه الخارق أسرارها الغامضة ، فيرشدها إلى الجانى الذى تحوم حوله شبهاتها ، ولا تستطيع أن تقيم عليه الدليل

* * *

تبدأ حوادث هذه الجريمة فى بلدة نيدلهام من

مقاطعة يوركشير حيث توطنت أسرة كبيرة العدد من نيف وثلاثين عاماً ، وانقطع أعضاء تلك الأسرة إلى الزرع والضرع والحرث والغرس والرى والسقيا والجمع والحصد ، والاتجار فى الحبوب والأنعام والأصواف ، وتربية الدواجن ، وترويض الجياد لكسب قصب السبق فى مضمار داربى القريب من موطنهم . وبالجملة كانوا أسرة لاتعرف اللهو واللعب ، ولا تضيع الأوقات فى غير ما يعود على أفرادها بالخير والمنفعة ، حتى أصبحوا مثالاً يحتذى وقدوة تتبع فى الجد والاجتهاد والحرص على المال والحذق فى تكوين الثروة . وكان أرجوس كوبلاند براكنبرى أظهر أفرادها مشهوراً بالشدة ، فكثر عدد أعدائه الذين يضمرون له السوء ويخفون نية الانتقام لثارات لا يعلمها إلا ذووها ممن ربوها فى صدورهم ونموها فى أفئدتهم . ومن العجب العاجب أنه لم يسمع قط يتلفظ بكلمة خشنة ، ولكنه كان لا يتبذل مع أتباعه ، وكان يتلطف فى معاملة الأمة السوداء كما يتلطف فى معاملة الأميرة العصماء ، ولم يكن يخطر ببال أحدأن يتجرأ عليه تجرؤاً منكراً . وكان أرجوس كوبلاند براكنبرى يضطر أشد الخلق صلفاً وكبراً إلى الكف عن غلوائه بما يصوب إليه من قوارص النهكم ، فقد كان له فى ذلك مذهب يجعل الناس منه على أشد الخيفة والحذر . ومما قيل عنه إنه كان يحب الترؤس على كل مجلس يضمه

وفى مساء يوم من الأيام سمع أهل البلدة التى كان يقيم فيها ذلك الرجل وهى نيد لهام بمقاطعة يوركشير طلقات نارية تترى ، فلما زال الجمود الذي يتلو وقوع الكارثة ، وقضى على الدهشة التى تعقب كبار الحوادث هرع الناس إلى مصدرها ومرجع صداها فاذا بهذا الزعيم العائلى ، ورئيس الأسرة الجادة المجدة معفراً بتراب الأرض مضرجاً بدمائه ، مكفناً بثيابه التى كان يختال فيها منذ برهة . ولم يعثروا فى مكان القتل على أثر للفاعل الشرير الذى انتهز بلا ريب خلو المكان ، فصوب فوهة طبنجته إلى صدر الرجل ضامناً القضاء عليه حتى لايشى به ولا يبوح باسمه

واتصل الخبر برجال الشرطة وأعوان سكوتلاند يارد ، وكان من ضجتهم ما يكون فى مثل تلك الحال فانتقلوا بقضهم وقضيضهم وأدوات بحثهم وآلات فحصهم ، وبثوا عيونهم وأرصادهم ووزعوا آذانهم توزيع الماء فى الغيضان ، ولكنهم واأسفا عادوا بالخيبة وباؤوا بالحسرة ولم يوفقوا إلى إثبات التهمة على أحد . غير أن واحداً من أقوى أعداء الرجل حامت حوله الشبهات وكان صديقاً حميما لبوردرو الذى ربّاه الفتيل وأنفق عليه وتعهده منذ الصبا إلى تمام الرجولة وجعله موضع ثقته وموطن أمانته . ولكن بوردرو الذى لاتشك أسرة الصريع فى علمه بشخصية القاتل وقدرته على إقامة الأدلة على جنايته ، غادر البلدة ولم يعد إليها وفضل أن يعيش على هامش الحياة فى لندن ، على أن يقضى بقية أيامه فى مسقط رأسه ومستقر أصدقائه ومواليه ومن بينهم تلك السيدة ، وهي لاتزال دائبة فى البحث والتنقيب ، وقدضرب لها دارك نايط أوفجاردر موعداً فى هذه الحانة ليتمكن من رؤية الرجل الذى تظن أنه يعرف قاتل زوجها . فلما دخل من الباب ووقع بصره على الرجل والمرأة التى تحاول تليين قلبه ليعترف لها بما يعلم تقديراً لجميلها وجميل زوجها فى معاملته تجاهلهما ثم خرج وعاد متزيياً بزى سكير

لا يفيق وإن يكن من أهل الأناقة ، وأومأ إلى السيدة أن تتنحى فتنحت ، وجلس إلى جانب بوردرو الذى لم يعرفه

وتبادلا النظرات فالحديث فالمسامرة . وبدأ دارك نايط يروى لبوردرو بعض حوادث من مبتدعات الخيال يوهمه أنها من مغامراته وأنه كان بطلها إلى أن سأل لعاب بوردرو ، فروى له الحادثة الآتية : لو أسرعت الخطى منذ هنيهة لاصطدمت هنا بامرأة تتهمنى بالقتل وأنا منه برىء وتتذلل إلىّ وتستعطفنى وتعنفنى وتذكرنى بالماضى السحيق . وقد قتل زوجها ولم يكن إلا قاتلا رجلا آخر استولى على ثروته وكان من الحذق بحيث لم يكشف عن جريمته أحد ، ومضى على هذه الجريمة أعوام وأشهر وأيام ، وظن القاتل وهو زوج تلك المرأة الملحة أن ستار النسيان قد أسدل على الجريمة والمجرم ... ولكن شقيق القتيل كان لا يزال يذكرها معاً ، وكان يعد الأيام والساعات ويحصى الدقائق والثوانى ويتحفز للانتقام ممن اعتقده قاتل أخيه ، وكان يمهله ولا يهمله ، كأنه القضاء المبرم ، وكأن القضاء المبرم أراد أن ينزل به فى أسعد أوقات حياته ، فاتصل به وصادقه وصافاه ، حتى أمن القاتل جانبه ، ونصح إليه بالزواج فتزوج وشاركه أفراحه ، وصحبه إلى باب غرفة الزفاف كأعز صديق يقضى مع صديقه آخر أوقات العزوبة ليشاركه مسراته

ولما سنحت له فرصة القضاء عليه وهو على أتم ما يكون صحة ومالا وجاها وأمناً على نفسه وفرحاً بزوجته وولده ، استل روحه من بين جنبيه

فضحك دارك نايط وهو يتظاهر بالسكر وقال : وما دخلك أنت أيها الغبي فى هذا الأمر ؟ لا يد لك فيها تبت يداك . لا تحدثنى عن نفسك إلا حديثا فيه قتل كنت أنت بطله .

فقال بوردرو : إنك لم تفهم شيئاً . ألم أقل لك إن الشقيق هو الذى قتل وإننى الذى مهدت سبيل القتل ، باختيار الساعة التى كان فيها القتيل وحيداً والطريق خالياً . وقد كان نصيبى من تلك الحادثة مكافأة قبضتها بعد مرور عام على حفظها فى سجل الشرطة ونسبتها مؤقتاً إلى قاتل مجهول فأرقت أسرة دارك نايط ولمعت عيناه . وقال له :

وما عليك إذا كنت تصيب مكافأة جديدة لا يعرف سبيلها سواى ؟

فحملق بوردرو فى محدثه ، فاستمر الرجل :

— أى نعم ، أكتب تقريراً مطولا يبعث به أحد أصدقائنا إلى رجال الشرطة فينفحونك منحة لا بأس بها ، ولا غبار عليك ولا حرج . فضحك بوردرو حتى بانت نواجذه . . وقال : لقد كتبت ورقة كهذه واجتهدت أن أدفع عن نفسى المسئولية ما أمكن ذلك . وها كها :

فضحك دارك نايط وقال : وأنا أعددت لك المكافأة وها كها . وأخرج من جيبه « جامعة » الحديد ، وقبل أن يستفيق بوردرو من دهشته ، ليدرك ما حل به كانت يداه مقيدتين فى الأغلال وكان رهن رجال الشرطة الذين كانوا يحيطون به من كل جانب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يرهف السمع ويصوب البصر ليقف على هذا الحادث الجديد بالتفصيل ، فما كان يصبر على أن تفوته طرائف الحانات فى هذه الليلة الحافلة بالحوادث

محمد لطفى جمعه

هيكل عظمي

لفيلسوف الهند وشاعرها رابندرانات
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

كان فى الغرفة المجاورة لغرفة نوم الأطفال هيكل عظمى معلق يقرقع حينما تعبث به الريح وفى النهار كنا نسر بالاصطدام به

وكان في هذا الوقت طالب من مدرسة الطب بكامبيل يعلمنا تشريح العظام لأن أوصياءنا كانوا يزعمون أنهم ينقشون فى عقولنا العلم التام . ليت شعري لأي حد نجحوا ؟ ولاحاجة لأن نقول ذلك لمن يعرفنا . والأفضل بلا شك أن نلتزم الصمت أمام من يجهلنا

وقد كرت الأعوام واختفى الهيكل العظمى من الغرفة كما اختفى تشريح العظام من ذاكرتنا دون أن يترك أى أثر

ازدحم منزلنا أخيراً بالمدعوين فاضطررت أن أقضى الليل فى تلك الغرفة التى كان معلقاً بها الهيكل العظمى وإلى انقضى الزمن الذى كنت آنفها فيه . حاولت النوم بكل وسيلة فلم أستطع ، أخذت أتقلب وأعد دقات ساعة الكنيسة طوال الليل ... طفق مصباحى يختلج لحظة ثم انطفأ ، وقد فقدت أسرتنا بعض أعضائها حديثاً ، وهذا ما اقتاد فكرى نحو الموت ...

ساءلت نفسى ألا يشبه نور المصباح الذى يتيه فى الظلمات من مسرح الحياة العظيم ضوء حياتنا الضئيلة الذى لا يلبث أن ينطفئ فى كل ساعة من الليل أو النهار ؟

ولتداعى الفكر عاودتنى ذكرى الهيكل العظمى ، وبينا أنا أتصور شكل الجسم الذى كان يكسو تلك العظام ، شعرت أن شخصاً يدور حول سريرى يسير متسكعاً بجانب الحائط ، ولقد شعرت بتنفسه السريع ، وخيل إلى أنه يبحث عن شيء لا يجده ويدور حول الغرفة بخطى سريعة

ولقد خدعت فى الحقيقة من شيء خلقه مخى المضطرب الذى حرم نومه ، وظننت أن وقع الأقدام التى سمعتها ما هو إلا دقات شرايينى فى صدغى ، ورغم ذلك شعرت بارتعاد مثلج ... ولأطرد من مخيلتى هذا الهذيان صحت بأعلى صوتى : « من هناك ؟ » فأحسست بأن الخطى وقفت بجانب سريرى وأجابنى صوت : « أنا الطارق وقد أقبلت لأختبر هيكلى العظمى »

ومن السخف أن يظهر الانسان الهلع والخوف من خيال بسيط ، ثم اكتفيت بأن أضغط على وسادتى وأسبح بلهجة مخالفة للأولى : « إن هذا الشاغل الذى اقتادك فى مثل هذه الساعة من الليل لمضحك ؟ وماذا يهمك هذا الهيكل العظمى »

ويظهر أن الجواب انبعث من كلمتى نفسها: « إن عظام هذا الهيكل قد أحاطت قلبى ورأت محاسن شباب الخلابة فى ربيعها السادس والعشرين ! وكيف أقاوم الرغبة الملحة فى رؤيتها ثانية ؟ »

فقلت له بدورى : « إنها لرغبة شرعية فتمم بحثك واتركنى لشأني عساني أجد النوم »

فرد الصوت : « إخالك وحدك وأود أن أجالسك لحظة نتسامر فيها . لقد كان يسرني أن أساجل الناس الحديث ولكني لم ألق فى هذه الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة إلا الأنين فوق نيران الموت ، وما أحيلى أن أحادث اليوم رجلاً مثل المهد السابق »

وقد شعرت أن شخصاً أقبل وجلس بجانب ستائرى فاستسلمت واستعنت بتوددى قائلا :

— ما أعظم ابتهاجى وسرورى للسمر ولنبحث سوياً عن موضوع شائق نتحدث فيه ...

— إنى لا أجد موضوعاً مسلياً أعظم من قصتى الشخصية فهل تسمح لى بسردها ؟

وقد دقت فى هذه الآونة ساعة الكنيسة الثانية صباحاً

قال الصوت : « حينما كنت فى عنفوان شبابى وكنت أقطن بين الأحياء سبب لى أحد الناس فزعاً ورعباً يفوقان رعب الموت : ولم يكن ذاك غير زوجى . وإنى لا أجد ما أقارن به شعورى غير السمك المعلق فى سن الشص فكأن شخصاً أجنبياً علقنى بشص عنيف وانتزعنى من دار طفولتى السعيدة حتى كنت لا أستطيع أن أفكر فى الخلاص ولقد مات زوجى بعد الزفاف بشهرين بينما كان أقاربى وأصدقائى يبكون بكاء مراً لحظى التعس المنكود . وفى ذات يوم قال حمى لحماتى بعد ما أطال النظر إلى وجهى : «ألا ترين أن زوج ابننا لها عين سوء صائبة حاسدة ؟ » هل أنت مصغ إلىّ ؟ وهل يهمك حديثى ؟

— يهمنى جداً وإن أوله ليدل على أنه شائق مسل !

— أنعم إذن حديثى . ولقد عدت إلى بيت أبى بكل سرور . ولو إن البيئة التى كنت فيها ما كانت تشعر بشىء من محاسنى لكننى كنت واثقة من أننى أحرز جمالا رائعاً نادراً . فما رأيك ؟

— هذا شىء معقول جداً ، ولكن لا تنسى أننى لم أرك قط

— قط ؟ وماذا تعمل بهيكلي العظمى ؟ ها ! ها ! هذا لا يهم فاننى أمزح

وكيف أجعلك تتصور أنه كان فى هذين التجويفين اللذين تجردا من لحمهما عينان سوداوان يتلألآن بأنواع السحر والفتنة ؟ أو أن الابتسام الذى كان يضىء هاتين الشفتين الورديتين لا يشبه فى شىء هيئة الضحك العابس التى عرفتها ، وعند ما أذكر كل المحاسن والرشاقة ومتانة هاته الانحناآت التى كانت فى شرخ الشباب تتفتح كالأزهار فوق هذه العظام النخرة لا أستطيع أن أكتم ابتسامى . وإنى لأتألم من ذلك . وهل يستطيع مشاهير العلماء فى زمن أن يفرضوا أن عظام جسم مثل هذا تخصص لدراسة تشريح العظام ؟ واعلم أن طبيباً من الشبان المجاورين لنا شبهنى بزهرة (الشمباك) الذهبية ؟

وحينما أمشى كنت أشعر بأن أقل حركاتى تفجر أمواجاً منسجمة تنبعث من كل صوب كلألاء الماس . وكانت تمر علىّ ساعات وأنا أشاهد فى يدىّ اللتين كبلتا برشاقة الرجال الذين يتأجج فيهم نشاطهم

ولكن هذا الهيكل العظمى قد أخفى عنك الحقيقة كشهادة الزور ، ولم يكن فى ميسورى أن أدحض تأكيداته الوقحة . إننى أشعر أننى أحب

أن أطرد النعاس من عينيك إلى الأبد بأن أستحضر أمامك الصورة الوردية الحية لجمالى بحيث أمحو من أمامك كومة العظام المشؤومة التى تملأ ذهنك

— كنت أستطيع أن أقسم بجسمك إذا كان لم يزل حياً ، ولو أنه لم يترك منه أى أثر من العظام لكن عقلى قد افتتن بالصورة الوضاءة لجمال كامل يظهر بهاءه بقوة التضاد هذا الليل الفاحم الذى يحيط بها ، وإنى لا أقدر أن أقول أكثر من هذا

— استمر الصوت فى حديثه قائلا : لم تكن لى صاحبات لأن أخى الوحيد صمم على عدم الزواج . كنت وحدى فى خدرى ، وقد اعتدت أن أستلقى في الحديقة فى ظل شجرة ، وكانت الأحلام تستدرجنى فى يقظتى حتى خلت أن العالم كله قد شغفه حبى وأن الدراري التى ما فتئت مستيقظة على الدوام لتتمثل من نشوة بهائى ، إن الصبا لتتهد حينما تتحلل لها عذراً لتتمسح بى بجناحها . وإن داست قدمى مرجاً فإن مجرد اللمس يفقده رشده . وإن فتيان العالم يظهرون أمامى كأنهم أعواد الكلأ تحت قدمى ، ولا أدرى لأى سبب يلازمنى الحزن والكآبة

وحينما تخرج شيكهار صديق أخى من مدرسة الطب أصبح طبيب أسرتنا ، وقد لمحته عدة مرات مختبئاً وراء ستار . وكان أخى رجلاً غريب الأطوار لا يهتم بالنظر إلى العالم الخارجى ، وكان بوده ألا تكون الدنيا مقفرة ويبتعد بالتدريج إلى أن يقبع فى ركن مظلم ، كان شيكهار صديقه الوحيد الذى أتاحت لى الفرص مقابلته ، وفى بلاط المفتونين بحبى الذى كنت أتخيله فى أوقات نزهتى الليلة كان كل شاب مشتت الفكر عند قدمى يستعير وجه شيكهار . هل أنت مصغ إلى ؟ وما قولك فى قصتى هذه ؟ »

فأجبت وقد سبقت لسانى زفرة :

« وددت لو كنت شيكهار ! »

— انتظر قليلاً وأصغ أولا لآخر الحديث ، وفى ذات يوم مطير أصابتنى الحمى فجاء الطبيب يعودنى ، وكانت هذه أول محادثة جرت بيننا . كنت راقدة أمام النافذة وقد لطف ضوء الشمس عند غروبها بياض لونى ، وحينما نظر إلى الطبيب وضعت نفسى مكانه وطفقت أنظر إليه مغرقة فى التصور والتأمل ، وشاهدت وجهى الشاحب فى ضوء الأصيل موضوعاً فوق الوسادة البيضاء كزهرة ذابلة وحلقات شعرى الحمق تعبث بجبينى بينا أجفانى مطرقة باستحياء ناشرة ظلا معبراً فوق سحنتى

سأل الطبيب أخى والحياء يلعثم لسانه ويخفض من صوته : « أتسمح لى أن أجس نبضها ؟ »

« أخرجت من تحت الغطاء قبضة مستديرة مدنفة ولاحظت حينما تفرست فيها أنها عاطل من سوار الصفير ! »(١)

لم أر فى حياتى أجهل من هذا الطبيب فى جس النبض . كانت أصابعه ترتعد حينما تمس ذراعى ، فإن قاس درجة الحمى فى جسمى فإنى شعرت بدقات قلبه وقسمها من أصابعه — هل وعيت حديثى ؟

فقلت : بكل سهولة ، إن دقات قلوبنا تعبر عن أفكارنا

— وبعد عدة وعكات وكثير من الشفاء والعافية وجدت أن عدد المفتونين الذى يؤمون بلاط حبى الخيالى آخذاً في النقص حتى انتهى إلى فرد واحد وفى النهاية استحال عالمي الصغير إلى طبيب ودنفة

(١) من عادات الهنود أن الأيامى لا يلبسن غير الثياب البيضاء ويكن عاطلات من الحلى

وبمناسبة مقابلتي اعتدت أن ألبس سراً طيلسانا أصفر وكنت أعقد حول شعري عقداً أبيض من أزهار الياسمين ، ثم أتناول مرآتي وأذهب إلي مكاني الذي ألفته تحت الأشجار

إنك ترى بلا شك أن مشاهدة جمالنا في المرآة يكون على ممر الزمن مملا ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل لأني لا أنظر بعيني نفسهما لأني كنت في الوقت نفسه أحد الشخصين فكنت أختبر كما يختبر الطبيب وكنت أطيل النظر وأفتن وأشتعل بنار الحب . ورغماً من انتباهي وحذري أغار أنين على فؤادي وسمع له صوت كنسيم الصبا في المساء

ومن هذا العهد كففت عن الشعور بالوحدة وفي أثناء نزهتي كنت أتتبع بنظراتي عبث أصابع رجلي الصغيرة الرقيقة بالرمال الناعمة ، وكنت أسائل نفسي ماذا يكون شعور الدكتور لو كان حاضراً . كنت أمثل الشمس وقت الزوال مغيرة على الزرقاء بنورها الوهاج ، ولم يعكر صفاء السكون غير صياح متقطع لنسر بعيد وصوت وراء سياج الحديقة لبائع خواتم من البلور وهو ينادي نداء شجياً ! فرشت على الكلأ ملاءة بيضاء لأستلقي عليها وأسندت رأسي إلى ذراعي وأرحت ذراعي الأخرى فوق الملاءة بشكل رشيق ، وقد تخيلت أن شخصاً يئن لاحظ وضع يدي الشائقة فشد عليها بين يديه ووضع في راحتي قبلة ذهبية وابتعد ببطء . وإن وقفنا الحديث هنا فما رأيك ؟

— « يكاد يكون ختاماً مقبولا » وقد أجبتها بلهجة حالم . قالت : وستبقى الصورة ناقصة قليلا ولكنني سأقضي بقية الليل في إصلاح هذا النقص

— ولكنها تكون جافة . وكيف تدخل فيها الضحك ! وكيف تصل إلى جعل الهيكل العظمي يضحك وينكر ملاحه ؟

— دعني الآن أتم الحديث ، وما أن وجد الطبيب بعض المرضى حتى أخذ غرفة أرضية من منزلنا وأعدها لعيادته . وفي هذا الزمن كنت ألهو بسؤاله عن تأثير العقاقير والسموم والكمية الكافية لقتل رجل ، فكانت هذه الأسئلة ملائمة لطبيعته فأجاب عليها بفصاحة ولباقة ، وكان من نتيجة هذه المحادثات أن صارت عندي فكرة الموت عادية لا تثير أي اهتمام ، وبذلك توطن الحب والموت عالي الباطني . إن حديثي قد قارب النهاية لأننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة

— كما أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الليل

— وقد لاحظت بعد مدة من الزمن قلقا غريباً يساور الطبيب وظهر عليه كأنه يخجل من أمر يريد أن يخفيه عني . وقد حضر مرة بثياب فاخرة وهندام ظريف ليستعير عربة أخي

« كنت فريسة لتطلع شديد فصممت على سؤال أخي . وبعد أن دار بيننا الحديث من الشرق إلى الغرب قلت له : خبرني بالحقيقة يا أخي ، أين يذهب الطبيب الليلة في عربتك ؟

فأجاب أخي باختصار : « إلى الموت »

— خبرني بكل صراحة أين ذهب ؟

— « ذهب ليتزوج » وقد أجاب أخي بطريقة أكثر وضوحاً

— أحقاً ما تقول ! وقد تفوهت هذه الكلمة مصحوبة بقهقهة طويلة

وقد علمت في آخر الأمر أن الخطب كانت غنية وورثت ميراثاً عظيما سيغدق على الطبيب ثروة طائلة ولكن لم أهانني باخفائه هذا المشروع ؟ هلا سألته يوماً أن لا يتزوج حتى لا يصمى فؤادي ؟ ولكن الرجال لا يؤتمنون . لم أعرف في حياتي إلا رجلاً

واحداً ، ولكن لحظة كانت كافية لكشف هذه الحقيقة .

ولما رجع الطبيب من عمله وتهيأ للرحيل قلت له والضحك يغالبني : « سنتزوج فى هذا المساء أيها الطبيب ؟ »

— إن فرحى قد أربكه بل زاده غيظاً وحنقاً

— ماذا جرى فانى لا أرى الأوركستر ؟

— فأجاب بتأوه : هل الزواج حادث مفرح ؟

« عاودني ضحك عنيف لا يغلب ثم قلت له :

لا ! لا ! فذاك من المستحيل أن يعلن زفاف دون أضواء وموسيقى !

ثم ضايقت أخى حتى أعد معدات العرس وجعله بهيجا سارا .

ولم انقطع لحظة عن التندر بالخطب وعن الوقائع التى ستمر بها وعن حالتى تلقاء هذه الواردة الجديدة .

— خبرني أيها الطبيب ، هل ستستمر فى جس نبض مرضاك ؟

بخ بخ ! ولو أن عمل العقل الباطن غير منظور لاسيما عند الرجال فانى أستطيع أن أؤكد بأن قولى سيصمى فؤاد محدثى كالحراب الفولاذية .

إن الزواج سيشهر بعد قليل فى الليل وقبل الذهاب شرب الطبيب هو وأخى كاسا من النبيذ كعادتهما اليومية ، وفى هذا الوقت طلع القمر

« ثم تابعت حديثى قائلة والابتسام يعلو وجهى : هل نسيت زواجك ؟ قد آن المسير »

وقد فاتنى بعض التفصيل ، فانى قبل هذه الآونة قد هرولت إلى العيادة وأخذت منها مسحوقا ووضعته خفية فى كأس الطبيب .

لقد أفرغ الطبيب كأسه بنهلة واحدة ثم قال لى بصوت متهدج من التأثر مصحوب بنظرة اخترقت فؤادى : «سأذهب» . ابتدأت الموسيقى بأنغامها الشجية ، ثم ذهبت إلى خدرى ولبست ثوب الزفاف المنسوج من خيوط الذهب والفضة وتزينت بحليى ووضعت على شعرى العلامة الحمراء التى تميز الزوج وذهبت إلى الأشجار لأهيىء مضجعى .

وكان الليل شائقا وقد ذهبت رياح الجنوب المنعشة بمتاعب الدنيا وقد تضوع شذا الياسمين والورد حتى غمر البستان البشر والفرح

وكانت أصوات الموسيقى تصل إلى سمعى أضعف مما كانت عليه وطفق لألآء القمر آخذا فى النقص وانمحت من ذاكرتى الدنيا وصورة بيت الأسرة كأنها وهم تبدد ثم أغمضت عينى وأنا مبتسمة .

وقد تخيلت أن الذين سيقبلون لمشاهدة بسمتى الأخيرة المنطبعة على شفتى كأنها آثار نبيذ وردى ، وأنى سأدخل فى مخدع زفافى الدائم ووجهى مضيء بنفس ابتسامه .

وأسفاه على مخدع زفافى وثوب عرسى المنسوج من الزخرف واللجين ! لأنى حينما استيقظت من قرقعة العظام التى يخيل إلىّ أنها صادرة من هيكلى العظمى وجدتنى فى حضرة ثلاثة غلمان يتعلمون تشريح العظام فى هيكلى . وفى هذا الصدر الذي كانت تخفق فيه أفراحى وأتراحى والذى تفتحت فيه وريقات زهرة صباى كان المعلم يبين بسبابته عظامى واحدة فواحدة . هلا وجدت أثرا من هذا الابتسام الذى درسته بكل عناية ؟

وكيف وجدت قصتى ؟

— إنها للذيذة محبوبة .

وفى هذه الآونة ابتدأ ينعق أول غراب

ثم سألت : « هل أنت هنا ؟ »

فلم يرد علىّ أحد

واخترقت أشعة الصباح مخدعى فأضاءته .

محمد كامل صيحاج

الخـــادم

للكاتب العظيم سيمبونوف

بقلم الأديب نصرى عطاالله سوس

— ١ —

عاد جيرازيم إلى موسكو حين كان يتعذر الحصول على عمل فيها ، وذلك قبل عيد الميلاد بأيام قلائل . وفى هذه الفترة كان كل عامل يتمسك بعمله مهما كان حقيراً ، طمعاً فى الحصول على هدية من مخدومه . وهكذا قضى الشاب الفلاح ثلاثة أسابيع دائباً فى البحث عن مهنة ولكنه لم يوفق

وكان يعيش مع أقاربه وأصدقائه الذين نزحوا من قريته. ولم يكن فى فقر مدقع، ولكنه كان يغتم لرؤية شاب قوى مثله يحيا بغير عمل

وقد عاش جيرازيم فى موسكو منذ حداثته . وعند ما كان طفلاً كان يشتغل بغسل الأوانى فى معمل من معامل البيرة ، ثم اشتغل بعد ذلك خادماً فى أحد المنازل . وفى السنتين الأخيرتين كان يعاون أحد التجار ، ولو لا أنه دعى إلى قريته لسبب يتعلق بالخدمة العسكرية لبقى حيث كان الى الآن. ولسبب ما لم يقبل جيرازيم جندياً. ولما لم يكن معتاداً حياة الريف فقد بدت القرية لعينيه فى حلة من الكآبة ، وصمم على الرجوع إلى موسكو مهما كانت النتائج

وكل دقيقة تمر كانت تزيد مله من جوب الطرقات فى فراغ وبطالة . ولم يترك جيرازيم أى سبيل للعمل إلا طرقها . ولقد ضايق جميع معارفه بالحافه ، وأحياناً كان يتصدى للمارة ويسألهم إذا كانوا يعرفون سبيلاً إلى عمل خال

ولم يعد يحتمل جيرازيم أن يكون عالة على الناس . وقد أصبح وجوده ينيط بعض مضيفيه . وتعرض بعض الخدم الذين كان ينزل عليهم لتأنيب مخدوميهم إياه بسببه . لقد كان فى حيرة تامة لا يدرى ماذا يفعل ، وأحياناً كان يجوب الطرقات النهار كله دون أن يتناول طعاماً ...

— ٢ —

فى أحد الأيام ذهب جيرازيم إلى صديق له من أبناء قريته ، يعيش على حدود موسكو . وكان هذا الصديق حوذياً عند رجل يدعى شاروف ، وقد مضى عليه أعوام كثيرة فى خدمته شاروف ، وقد أفلح فى أن يستحوذ على محبة سيده فأصبح يأمنه على كل شىء ويبدى له دلائل الرضا . ولعل لسانه الفتيق هو الذى كسب له ثقة سيده فقد كان يشي بكل الخدم ، وكان شاروف يقدره من أجل ذلك

وتقدم جيرازيم وحياه؛ واستقبل الحوذى صديقه استقبالاً مناسباً وقدم إليه شاياً وبعض الطعام ثم سأله عما يفعله فأجابه :

— فى أسوأ الأحوال يا يجور . إنى أعيش بدون عمل منذ أسابيع

— ألم تسأل مخدومك القديم أن يستعيدك إليه؟

— لقد سألته

— أو لم يقبل ؟

— هناك من حل محلى

— آه ... هذا هو السبب . تلك هى خطتكم أيها الشبان . تخدمون رؤساءكم حيثما اتفق ، فاذا تركتم مهنتكم تكونون قد سددتم طريق الرجوع إليها بالأوحال . ألا يجب أن تقوموا بواجباتكم بحيث تنالون التقدير الحسن ، فاذا رجعتم إلى مخدوميكم لا يهملونكم — بل يخرجون من حل محلكم ...

— وكيف يكون ذلك ؟ إنك لا تجد مخدومين على هذه الشاكلة فى هذه الأيام كما أننا لسنا بملائكة !

— وما فائدة تبديد الكلام ؟ ! إنى أريد أن أحدثك عن نفسى : إذا حدث أنى تركت عملى لسبب من الأسباب ورجعت إلى منزلى ، فالسيد شاروف يقبلنى عندما أرجع إليه ويكون سعيداً بقبولي

وجلس جيرازيم محزوناً . لقد لاحظ أن صديقه كان يباهى بنفسه ، ورأى أن يساير فقال :

— إني أعرف ذلك ولكن من العسير وجود رجل مثلك يابجور . ولو لم تكن من أجود الخدم ما أبقاك سيدك فى خدمته اثنى عشر عاما

فابتسم بجور لأنه كان يحب المدح وقال :

— ذلك هو الواقع . لو أنك اتبعت نظامى فى الحياة والعمل ما وجدت نفسك عاطلا شهرا بعد أشهر

ونادى شاروف حوذيه فخرج وهو يقول :

— انتظر برهة .. سأرجع حالاً

— حسن جدا .

— ٣ —

عاد بجور وأخبر صديقه أن عليه فى خلال نصف ساعة أن يعد العربة ويسرج الخيل ويستعد لحمل سيده إلى المدينة . وأشعل بجور بيبته وأخذ يذرع أرض الغرفة ثم وقف فجأة أمام جيرازيم وقال :

— استمع يابنى ، إذا رغبت فى أن أحدث السيد شاروف عنك فلا بأس

— وهل هو فى حاجة إلى خادم ؟

— لدينا خادم غير كفء . تقدم به العمر ومن المتعذر عليه القيام بالخدمة . ومن حسن الحظ أن هذه الضاحية غير مأهولة — كما أن رجال البوليس لا يدققون كثيرا ، وإلا لم يمكن الخادم الشيخ أن يحتفظ بالمكان على حالة من النظافة ترضيهم

— آه .. لو أمكنك ، حدثه عنى يابجور — إنى سأدعو لك طول حياتى .. لم أعد احتمل العيش بدون عمل

— حسن . سأحدثه عنك . تعال غدا . والآن يحسن أن تأخذ هذه الدريهمات

— شكرا يابجور . هل ستحدثه عنى ؟ قم بهذا الجميل من أجلي

— حسن . سأحاول

وانصرف جيرازيم وأعد بجور العربة وارتدى ملابسه الخاصة بمهنته وقاد العربة إلى الباب الرئيسى للمنزل حيث ركب شاروف ، ثم انطلقت به الخيول إلى المدينة وهناك أدى مهمته ثم آب إلى منزله . ولاحظ بجور أن سيده على شيء من البشاشة فبدأ حديثه معه :

— هل لى أن أسألك معروفاً ؟

— وماذا تطلب ؟

— شاب من قريتى ، شاب طيب ...

ليس لديه عمل

— حسن !

— ألا تلحقه بخدمتك ؟

— وهل أنا فى حاجة إلى خادم ؟

— ألحقه على أن يقوم بأية خدمة تطلب منه

— وما ذا يعمل بوليكار ؟

— وما فائدة بوليكار ؟ ؟ لقد حان أوان فصله

— ليس من العدل فصله . لقد خدمنا عدة سنوات . فلا أستطيع طرده بدون سبب

— ولنفرض أنه اشتغل بخدمتك سنوات ، إنه لم يخدمك بغير أجر . لقد كان يتناول مرتباً ، ومن المؤكد أنه ادخر بعض المال لسنى شيخوخته

— ادخر ؟ كيف كان يمكنه ذلك ، إنه ليس وحيداً فى الدنيا : لديه زوجة يعولها وهذه مضطرة أن تأكل وتشرب أيضاً

— إن زوجته تكسب أيضاً . إنها أجيرة باليومية . ولم تعير بوليكار وزوجته اهتماماً ؟ حقاً إنه خادم فقير . ولكن لم تبعثر أموالك ؟ إنه لا يؤدى عمله كما يجب . وعندما تحين نوبته فى حراسة المنزل يترك مكان الحراسة أكثر من عشر مرات أثناء الليل . لم يعد يحتمل البرد وقد يكدرك البوليس بسببه يوماً . قد يهبط المفتش علينا يوماً ، وعندئذ لن يسرك أن تكون مسئولا عن نتائج إهمال بوليكار

— ومع ذلك ففصله قسوة واستهتار . لقد خدمنا خمسة عشر عاماً ، وبعد هذه المدة نعامله هذه المعاملة الفظة فى شيخوخته ... إنها لخطيئة

— خطيئة ؟ هل يصيبه منك ضرر ؟ إنه لن يموت جوعاً بل سيذهب إلى ملجأ الفقراء . وهذا أجدى عليه . هناك يقضى شيخوخته فى سلام

وأخذ شاروف يفكر فى المشكلة ثم قال :

— حسن . دع صديقك يحضر هنا . وسأرى ما يمكنى أن أفعل له

— أرجو يا مولاى أن تلحقه بخدمتك . كم أنا حزين له ! يا له من شاب خَيِّر ! ومع ذلك فهو عاطل منذ أمد طويل . إنه سيؤدي واجبه على أكمل وجه وسيخدمك باخلاص . لقد ترك عمله الأول بسبب الخدمة العسكرية ولولا ذلك ما تركه مخدومه الأول

— ٤ —

عاد جيرازيم فى المساء التالى وسأل صديقه :

— هل أمكنك أن تقوم بشىء فى سبيلى ؟

— نعم ... على ما أعتقد . دعنا نتناول بعض الشاى أولا ، وبعد ذلك نذهب لمقابلة سيدى

ولم يكن جيرازيم بالراغب فى شرب الشاى . لقد كان متشوقاً إلى معرفة ما قر عليه أمره ولكن مقتضيات الواجب واللياقة نحو صديقه أجبرته أن يشرب قدحين من الشاي ، أخذه بعدها صديقه إلى رب الدار

وسأل شاروف جيرازيم عن مكان سكنه وعن مخدوميه السابقين ، ثم أخبره بعد ذلك باستعداده لقبوله خادماً عاماً يؤدى كل ما يطلب منه وأن عليه أن يأتى صباح اليوم التالى ليبتدئ عمله . وأذهل جيرازيم هذا الحظ المفاجئ وكان فرحه عظيما حتى أن قدميه لم تقويا على حمله ، وبعد برهة رجع جيرازيم إلى غرفة الحوذى

وقال له الحوذى : « حسن يابنى . يجب أن تعنى بأن تؤدى واجبك على الوجه الأكمل حتى لا أضطر يوما إلى الخجل بسببك . أنت تعرف من هم السادة إذا قصرت مرة تعقبوك دائما بالبحث عن أغلاطك ولن يدعوك فى سلام أبدا

— كن مطمئنا يا يجور

وانصرف جيرازيم وعبر فى طريقه فناء المنزل ،

وكانت غرفة بوليكار تطل على هذا الفناء وكان ينبعث منها نور ضئيل يضيء طريق جيرازيم الذى شعر بالشوق إلى رؤية الغرفة التى ستخصص له، ولكن زجاج النافذة كان مغطى بالصقيع بحيث يتعذر رؤية أي شيء خلاله . وسمع جيرازيم أصواتا تنبعث من الغرفة فوقف يتسمع . سمع صوتا نسائياً يقول « ماذا نفعل الآن ؟ » فأجاب رجل — وكان بوليكار لا شك :

— لست أدري .. لست أدري، نطوف الشوارع مستجدين .

— هذا كل ما بقى لنا . وما من حيلة أخرى . يالله لنا، نحن الفقراء ! أى حياة تعسة نحياها؟ نكد ونكدح من الصباح الباكر حتى الليل يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، وعند ما تتقدم بنا السن نتضور جوعا

— ماذا نفعل؟ إن سيدنا ليس من طبقتنا، ولا جدوى فى الذهاب والتحدث إليه . إنه لا يهتم إلا بمصلحته

— كل السادة على مثل هذه الحقارة . إنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم ، لا يخطر ببالهم أننا نعمل بشرف وإخلاص مدى سنوات ، نفنى زهرة قوانا فى القيام بخدمتهم ثم يخشون أن يبقونا عاماً آخر ، حتى ولو كانت لدينا القوة للقيام بواجباتهم . فاذا عجزنا تماماً وجب علينا أن ننصرف من تلقاء أنفسنا

— إن شاروف لا يلام بقدر ما يلام حوذيه الذى يود الحصول على مهنة لصديقه

— نعم ... يا له من ثعبان ! إنه يعرف كيف يشقشق بلسانه ... وأنت يا بجور أيها الحيوان القذر اللسان ... انتظر ، سأنتقم منك ، إنى سأذهب إلى السيد وأخبره كيف كان هذا الوغد يغشه وكيف يسرق التبن والعلف . وسأقنع السيد أن هذا الوغد يكذب فى كل ما ينقله عنا

— لا لا . أيتها المرأة لا ترتكبى خطيئة

— أية خطيئة ؟ أو ليس حقاً ما أقوله ؟ إننى أعرف صدق ما سأتحدث به وسأفضى بكل شيء للسيد . ولم لا ؟ ماذا نفعل الآن ؟ أين نذهب ؟ لقد حطمنا، لقد حطمنا، وانفجرت المرأة باكية متأوهة

سمع جيرازيم الحديث كله وكأن خنجرا نفذ فى أوصاله . لقد تحقق أى بلاء كان يجره الى هذين الشيخين وشعر أن قلبه يتمزق

وقف حيث كان زمنا طويلا محزوناً غارقاً فى الفكر ، ثم دار على عقبيه وذهب ثانية إلى غرفة الحوذى الذى سأله عندما رآه

— هل نسيت شيئاً ؟

وأجاب جيرازيم متلعثما : لا ... لقد أتيت ... استمع إلىّ ... أود أن أشكرك كثيراً على حسن استقبالك إياى ، وكل ما عانيته من أجلى .. ولكني لا أقبل العمل هنا

— ماذا ؟ ما ذا تعنى ؟

— لا شيء . لا أرغب فى العمل هنا . سأبحث عن عمل آخر . وانتابت بجور حدة غضب وقال :

— هل تعنى أن تجعلنى مجنوناً فى رأى سيدى؟ هل تعنى ذلك أيها الأبله؟ لقد أتيت تتضرع فى وداعة وترجو المساعدة . والآن ترفض العمل . أيها الوغد لقد أخزيتنى !

وصعد الدم إلى وجه جيرازيم وخفض عينيه ولكنه لم ينبس ببنت شفة

وأدار بجور ظهره فى احتقار وكف عن الكلام

وعندئذ التقط جيرازيم قبعته بهدوء وترك غرفة الحوذى وعبر الفناء مسرعاً ثم اجتاز باب المنزل وابتعد عن الدار مهرولاً

وكان يشعر بالسعادة والفرح ...

نصرى عطا الله سرس

الأنية المكسورة

مترجمة عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن مدينة نابول ليست إلا قرية صغيرة جداً على خليج كانز . ولكنها لجمالها من أشهر المدن فى إقليمها وتحيط بها مزارع البرتقال الدائمة الاخضرار وبساتين الكرم والزهور . على أن ذلك وحده لا يكفى لشهرتها فلا بد أن تكون فتياتها جميلات . وإننى لست واثقاً من ذلك وإنما استنتجته مجرد الاستنتاج . ويحزننى أن هذه المدينة صغيرة فلا يكفى ما فيها من البرتقال والعنب والنساء لتقسيمه على أهل بلادى

وقد كان نساء نابول منذ وجدت هذه المدينة جميلات . وكانت كذلك إحداهن الملقبة باسم ماريتا الصغيرة . وسميت صغيرة لجمالها ولكنها بنت سبعة عشر عاماً وقد علت هامتها فارتفع جبينها بحيث يصل إلى ثغر الفتى الطويل القامة

وقد أكثر المؤرخون من الكلام عن ماريتا . ولهم كل العذر فى ذلك ولو كنت فى مكانهم لفعلت مثل ذلك لأنها كانت حتى إلى العهد الأخير لما انتقلت مع أمها إلى مدينة مانون على شاطئ الافينون قد قلبت المدينة رأساً على عقب . ولست أعنى أنها قلبت أبنية المدينة ولكنها قلبت الرؤوس والقلوب التى يحيق بها الخطر كلما جاورتها عيون جميلة . وإن الذين يسخرون من هذا القول هم الجهلاء الذين لم يقرأوا فى التاريخ أن سيدة واحدة كانت سبباً فى إثارة الحرب فى آسيا وأوربا . وقد جاء ذكر هذه السيدة فى شعر هوميروس

لم يمض أسبوعان على سكنى ماريتا المنزل الذى أقامت فيه حتى عرف كل شبان المدينة أن الفتاة التى سكنت هذا المنزل هى أجمل فتاة فى الإقليم . وكانت كلما مشت فى الطريق تكلم الطاعنون فى السن . وأما الشبان فيعتريهم الخرس . وتفتح النوافذ ذات اليمين وذات اليسار ويطل عليها السيدات من هذه النوافذ تحية ، فتجيب متلفتة يميناً ويساراً بابتساماتها السارة

وإذا مشت ماريتا فى الكنيسة نسى من فيها من الشبان الجنة ونعيمها وصدفوا عن صور القديسين إلى خديها الورديين

وكان نساء المدينة يعدون مجيئها نكبة فان أزواجاً كثيرين فترت محباتهم ، وكاد يسلو معشوقته كل عاشق مستهتر ، وأصبحت الأحاديث كلها عن حوادث الطلاق بعد أن كانت عن الزواج . وأخذ كل خطيبين يردان الخواتم والهدايا والصور بدلاً من التهادى بها فى العهد القديم . وشارك الكبار الصغار فى ذلك ، وصار الزوجات ذوات النسل يغضبن من بيوتهن ومعهن أبناؤهن وأحفادهن

وكانت ماريتا هى السبب فى ذلك كله . وصار كل الناس يتكلمون بهذه الحقيقة ، ولكن ماريتا نفسها لم يخطر ببالها أنها فعلت سوءاً ولا أن الناس ينسبون إليها مثل هذه الشرور . وكان البادئ بنسبة الشر إليها أترابها الفتيات ثم الأمهات فالآباء فالشبان . ولكن الفتاة ظلت تحترم الجميع وتحب

الجميع ، فشذ عن هذه القاعدة الشبان وصاروا يقولون إنها طاهرة بريئة من الأذى فلا يتهمونها بشيء . وحذا الآباء حذو الشبان ثم تبعتهم الأمهات فالفتيات

وكان مجرد الحديث مع ماريتا يكسبها الحب والاحترام والتقدير . ولكنها لم تظن أنها موضع التقدير كما لم تظن من قبل أنها موضع البغض . وهل تظن البنفسجة المختفية فى الصخور وراء العشب أنها جميلة ؟

غير أنها كانت تلاحظ أنها تدعى إلى كل حفلة وكل سهرة ، وأن جميع الرجال يبدون من العطف ما يسترق القلوب وإن كان بعضهم أقسى قلباً من فرعون ، ولعل تلك القسوة وراثية عن آدم بعد طرده من الفردوس .

ومن أمثلة القسوة التى ارتكبت ضد ماريتا ما فعله كولين أغنى مزارع فى نابول وهو صاحب مزارع الزبتون والليمون والبرتقال ، وهو يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ، ولكنه لم يسأل نفسه قط لماذا خلق الله النساء . وقد كان الأوانس إلى عمر معين يغتفرن له ذلك ويحسبنه من أحسن من أظلتهم السماء .

ولما عاد أهل المدينة فاتفقوا على أن ماريتا بريئة لم تجن ذنباً كان كولين هو الوحيد الذى لم يعدل عن الرأى الأول فيها ، فاذا ما ذكراسمها اعتراه الصمت ، وإذا ما رآها فى الطريق أدار وجهه مغضباً ، وإذا ما اجتمع الشبان عند الشاطىء للتنزه أو للرقص كان كولين أشدهم مرحاً حتى تظهر ماريتا فيعتريه الانقباض والصمت

وكانت نظرات كولين حادة تحبها الفتيات وتخشينها إلا ماريتا فانها لا تحب هذه النظرات ولا ولا تخشاها . وإذا جلست مع كولين فى وسط أصدقائه وأخذ يقص إحدى قصصه وهى كثيرة عذبة لم تلتفت إليه كسائر الفتيات بل كانت تنتقم منه . وإن الانتقام لمذب وان ماريتا لتعرف كيف تنتصر . لكنها مع ذلك كانت رقيقة وكانت محقة . وإذا سكت كولين فانها تتألم ، وإذا عبس امتنعت عن الضحك ، وإذا ذهب لم تمكث بعد ذهابه طويلاً بل تعود إلى منزلها وتبكى وحدها وهى فى بكائها تكون أجمل من الجدلية ولو أنها لم تخطىء مثلها .

وكان الأب جيروم راعى كنيسة نابول يبلغ السبعين من العمر وفيه كل الصفات التى تميز القديسين غير أنه أصم . وكان الصغار يسرون من خطبه وهى دائماً تنحصر فى موضوعين أحدهما : « الحب المتبادل بين الأطفال » والثانى « عجيبة هى أفعال العناية » والحق أن هذين الموضوعين يتضمنان كثيراً من روح المسيحية . ولكن كولين لم يكن يفهم شيئاً منهما ، وهو حتى حين يرى أنه أحب حباً شديداً يضمر فى نفسه حقداً شديداً

وفى الموسم السنوى الذى ينتقل فيه أهل القرى فى ذلك الاقليم إلى مدينة فنس ، ذهب أهل نابول وكان بينهم ماريتا وأمها وكان بينهم كولين أيضاً . وقد أنفق كولين كثيراً فى مشترى هدايا لأصحابه ولكنه لم ينفق درهماً واحداً من أجل ماريتا . ذلك على الرغم من أنه لم يفارقها . على أنه لم يكلمها ولم تكلمه فى كل مسافة الطريق . وكان من السهل

عليها أن تفهم أن وراء هـذه الملازمة والمخاصمة تدبيراً من تدابيره السيئة

ووقفت أمها واستوقفتها أمام حانوت وقالت : « انظرى يامارييتا ، ما أجمل هذه الآنية ! إن الملكة لا تشرب فى آنية أنفس منها . انظرى إلى هذا الذهب اللامع وإلى رسم هذه الحديقة التى تشبه الفردوس . إن صور الزهور فيها جواهر غالية . انظرى إلى شجرة التفاح . إن آدم وحواء كانا معذورين إن كان تفاح الجنة بمثل هذا الجمال »

فنظرت ماريتا إلى الآنية وقالت : « أيكون لى مثلها فى يوم من الأيام ياأمى ؟» فقالت الأم : « أنحن فى سوق فنس هنا ، أم فى سوق الفردوس ؟ »

وفى أثناء الحديث بين الأم والبنت اجتمع حولها الفتيات والفتيان الآتون من نابول وسألوا صاحب الحانوت عن ثمن هذه الآنية فقال : « مائة جنيـه » .

فسكتوا وذهبوا يائسين

ولما ابتعد أهل نابول عن الحانوت عاد كولين وحده إليه ودفع المائة جنيه وأخذ الآنية ملفوفة فى الأقطان داخل صندوق

ولما اقترب كولين من مدينة نابول وهو عائد إليها رأى فى الطريق جاك الهرم حاجب القاضى ، وكان هذا الحاجب طيب القلب جداً ولكنه غبي جداً . قال له كولين : سأعطيك مالاً يا جاك على أن تذهب بهذا الصندوق إلى بيت ماريتا على شرط أن تقول إن الذى أعطاك إياه رجل غريب ولا تصرح باسمى ولا باسم أى إنسان . وإذا خالفت فانى أعاقبك يا جاك »

فوعده جاك وأخذ الصندوق الذى به الآنية ولكنه قبل أن يذهب إلى المنزل رأى سيده القاضى « هو تمارتين » فسأله القاضى : « ما هـذا الذى تحمله يا جاك ؟ »

قال جاك : « هذا صندوق سأذهب به إلى بيت ماريتا ، ولكننى لا أقول لك من الذى أعطانى إياه» فقال القاضى : « لماذا ؟ »

قال الحاجب : « لأن كولين يعاقبنى إذا قلت »

فابتسم القاضى وقال : « لك الحق فى كتمان السر يا جاك ، ولكن فاتتك الفرصة فى هذه المرة . هات الصندوق فانى سأذهب إلى بيت ماريتا »

سلم جاك الصندوق إلى القاضي فقد كان من عاداته أن يقابل بالطاعة كل أمر يصدر إليه وذهب القاضى إلى منزله ففتح الصندوق وفحص الآنيـة فأدرك قيمتها ، وعرف أن كولين لا يشترى هذه الهدية إلا وله غرض سيء من إرسالها إلى ماريتا، ففحصها خشية أن يجد فأراً مخبوءاً فيها، فلما لم يجد فأراً قال إن كولين لم يرد على كل حال إلا إيصال الأذى بماريتا ، وقد يكون قصده أن يشاع أن هذه الآنية مهداة إليها من عاشق فيمتنع خطابها وتسوء سمعتها . وقال : « إننى منعماً لهذا الأذى سأقدم الآنية على أنها هدية منى »

وتذكر قول القسيس جيروم إن الأطفال يحب بعضهم بعضاً . وقد كان هذا القاضى طفلا ولو أنه

تجاوز الخمسين . وكانت ماربيتا تكرهه ولم تفكر قط في ضخامة مركزه وكثرة أمواله ، وكان يزور منزلها فيتكلم أحياناً عن الزواج فتهرب ماربيتا من مجلسه منزعجة . أما الأم فانها تظل جالسة غير خائفة أمام هذا الرجل الرفيع المركز . ومما ينبغي أن يذكر أنه وإن كان كولين أجمل أهل المدينة فان هذا القاضي يمتاز عنه بشيئين أولاً أنه أكبر منه سناً ، وثانياً أنه أضخم منه أنفاً . وقد كان أنف هـذا القاضي فريداً بين الأنوف، فهو يتقدمه في الجلسة كأنه حاجب، وهو إلى جانب أي أنف آخر كالفيل إلى جانب أي إنسان .

وذهب القاضي إلى بيت ماربيتا فقابلها هي وأمها وقال : « لقد رأيتك في فينس تبدين إعجابك بالآنية فجئت إليك اليوم بهـا وأرجو أن تقبليها مع قلبي هدية إليك »

فأخـذت الأم تنظر إلى الآنية نظرة سرور ، ولكن ماربيتا قالت : « لا أقبل الآنية ولا أقبل قلبك » .

غضبت الأم وقالت : « إنني يا حضرة القاضي أقبل الآنية وأقبل قلبك . وأنت أيتها المجنونة كيف تحتقرين الحظ ؟ هل تظنين أن الكونت سيتزوج منك حتى ترفضي خطبة قاضي نابول ؟ إنني أعرف مصلحتك أكثر مما تعرفينها . إنني يا حضرة القاضي أفتخر بأن تكون زوجاً لبنتي »

وفي أثناء هـذا القول خرجت ماربيتا باكية وكرهت الآنية أشد الكراهية من ذلك الحين . ووضع القاضي راحة اليد اليمنى فوق أنفه وقال لمن يريد أن تصير حماته : « لا تستعجلي يا أمي فمع مرور الزمن ستعرفني ماربيتا أكثر مما عرفتني إلى الآن . وإنني أفهم أخلاق الفتيات . وأؤكد أنه بعد ثلاثة أشهر ستصير ماربيتا محبة لي »

فقالت ماربيتا ساخرة من وراء الباب : « إن أنفك أكبر من أن يسمح لي بالحب »

وانقضت ثلاثة الأشهر ولم يستطع القاضي أن يصل إلى قلبها ولو بطرف أنفه .

وفي أثناء هذه المدة كانت الآنية سبب متاعب ومضايقات كثيرة لماربيتا . وفي خلال الأسبوعين الأولين كان أهل المدينة يقولون إن القاضي أهدى إليها آنيـة فقبلتها وإن الاتفاق قد تم على زواجها منه . وكانت ماربيتا تقول لصاحباتها إنها تفضل أن تلقي بنفسها إلى قاع البحر على أن تصبح زوجة له فيقلن لها ضاحكات : « إنه لمن السعادة أن تستظلي بظل أنفه » فيزيد هذا القول من مضايقتها

وكانت الأم تكره ابنتها على أن تضع في الآنية كل يوم باقة جديدة من الزهر، وهي تريد بذلك أن تحببها فيها وفي مهديها ؛ ولكن ماربيتا استمرت على كره كليهما . وكانت تعد ما تكلفه بها أمها عقوبة . وهذا سبب آخر من أسباب مضايقتها .

وفي الصباح نزلت إلى حـديقة المنزل كالعادة لتقطف الأزهار وتصنع منها باقة للآنية فوجدت باقة من أجمل الزهور موضوعة فوق صخرة . وفي وسط هـذه الباقة ورقة كتب عليها : « عزيزتي ماربيتا » فظنت هذه الباقة من القاضي ومزقت الورقة إرباً . ولكنها أخـذت الورد ووضعته في الآنية .

وفي ذلك اليوم جاء القاضي للزيارة في موعده فلم تجده مساء حين لم يجد الورقة في الآنية . وفي ذلك دلالة على تمزيقها . فكان عدم استيائه سبباً ثالثاً من أسباب مضايقتها

وأخيراً فهمت من حديثها مع القاضي أنه ليس الذي وضع الباقة والورقة في الصباح .

وكانت ماريتا كأكثر الفتيات شديدة الرغبة في معرفة الحقائق فتساءلت أي رجل آخر في المدينة هو الذي فعل ذلك ؟ وأخذت تستعرض في ذاكرتها أسماء الشبان واحداً بعد واحد، ولكنها لم تصل إلى نتيجة ، فقررت أن تراقب الحديقة حتى تعرف هل يعود مَنْ وضع الباقة

ولكن مراقبتها لم تسفر عن نتيجة، فقد كانت كل صباح تعثر على الباقة وفيها ورقة كتب عليها « عزيزتي ماريتا » ، فكانت تخال هذه الجملة تأوهاً وتعود في اليوم التالي قبل ساعة من اليوم السابق حتى صارت تنزل إلى الحديقة في أواخر الليل .

وفي إحدى الليالي نزلت قبل الشروق فوجدت شاباً نائماً وفي يده باقة من الزهر . وكانت دهشتها شديدة عندما عرفت أنه كولين . وعرت جسمها رعشة شديدة وقالت في نفسها : « أهذا هو الشرير الذي استثار قلقي هذه المدة الطويلة وجعلني أقوم كل ليلة في هذا الموعد ؟ »

ثم عزمت على الانتقام منه فحملت الباقة ورمتها منثورة حوله كما ترمى الزهور فوق القبر . ولم تكتف بذلك بل أرادت أن تزيد في الانتقام فحلت الشريط الأزرق من قبعتها وربطت بطرفه يد كولين وبالطرف الآخر فرع الشجرة القريب منه لكي يزيد ارتباكه عند ما ينهض من النوم

ولكنها استبقت الورقة التي عليها « عزيزتي ماريتا » . وقالت إنها لا بد أن تكون بخطه وأنها متى احتفظت بها فقد احتفظت ضده بدليل كتابي

وهكذا كانت ماريتا تظن أنها ماكرة ولكنها أسفت على تعجلها بربط يده بالشريط ، فانه لما نهض لف هذا الشريط حول قبعته ومشى كذلك في كل شوارع المدينة . ولم تكن ماريتا تظن أن شريطها الأزرق معروف لكل إنسان ؛ ولكن أهل القرية عرفوه وأخذوا يتحدثون بأنها أهدت شريطها إلى كولين

وسمع القاضي وسمعت الأم بهذا الحديث فاشتد غضبها وخجلت ماريتا وأنكرت . وقال القاضي : « أما وقد وصل الأمر إلى هذا الحد فلابد من عمل سريع » . فقالت الأم : « إذهب اليوم وأعد وليمة العرس وفي غد سأبعث بماريتا إلى القسيس ومعها رسالة حتى لا ترتاب . ولكني في هذا اليوم سأكلم القسيس وأفهمه الأمر . ومتى وصلت إليه فإننا سنباغتها عنده ونعقد إكليلها عليك »

قال القاضي : « ولكنها لا تحبني » فقالت الأم : « أنا أعرفها أكثر مما تعرف . إذهب وأعد وليمة العرس »

وذهب القاضي مطمئناً إلى ذلك . وفي الصباح التالي نهضت ماريتا في الفجر وذهبت إلى الحديقة فلم تجد الباقة . ولكن بعد لحظة ظهر كولين وفي يده الباقة فاحمر وجهها واضطرب كولين وقال :

« سعدت صباحاً يا ماربيتا »

قالت : « سعدت صباحاً ، ولكن لماذا تمشى بالشريط فى شوارع المدينة وتعرضه علناً ؟ألا تخجل ؟ إننى لم أعطك هذا الشريط »

فزاد اضطراب كولين ، وخجلت ماربيتا من كذبها فقالت : « نعم أنا أعطيتك الشريط ولكن لم يكن من حقك عرضه علناً على هذه الصورة . هات الشريط »

قال : « اتركيه لى » . فقالت بحدة : « كلا ولكن هاته »

فغضب ووضع الشريط فى باقة الورد وتناول منها الآنية ووضع فيها الباقة وألقاها على الأرض وجرى مسرعاً فتكسرت الآنية، وكانت الأم إذ ذاك مطلة من النافذة ورأت كل شىء ، وسمعت الحديث كله فكاد يطير عقلها من تكسر الآنية . ولكن بعد تفكير قليل قالت : « إن قاضى المدينة سيكون صهرى ولا بد أن أشكو كولين إليه فيحكم لماربيتا بتعويض كبير يكون مهراً لها تدفعه إلى القاضى »

أخذت ابنتها وذهبت إلى القاضى ومعها أجزاء الآنية المكسورة وقدمت شكواها ، فثار القاضى وأمر الجنود باحضار كولين، وعقدت الجلسة فجاء كولين إلى جانب ماربيتا وهمس فى أذنها : « سامحينى فانى كسرت الآنية ولكنك كسرت قلبى »

وسمع القاضى أقوال الأم . وسأل كولين فاعترف بأنه كسرها عن غير عمد . فقالت ماربيتا : إنها هى التى أغضبته وإنه لم يكن يريد كسر الآنية » صاحت الأم : « هل تدافعين عنه ؟ إنه لم ينكر كسرها ولذلك استحق لنا التعويض »

فنظر القاضى إلى كولين وقال : « عليك أن تدفع ثمن الآنية ثلاثمائة جنيه فانها تساوى أكثر من ذلك »

فقال كولين : « إننى اشتريتها بمائة جنيه وأهديتها الى ماربيتا فهى لاتساوى أكثر من ذلك؛ ولا أدفع ثمنها إلا إذا طلبته ماربيتا لأننى صاحب هذه الهدية »

هنا اضطرب القاضى اضطراباً شديداً وأبهم الأمر على الأم، واستغربت ماربيتا، وقال القاضى : « كيف تجرؤ على الادعاء بأنك اشتريت الآنية مع أنها هدية منى »

فقال كولين : « أنا أرسلتها إليها مع حاجبك هذا . تكلم يا جاك فأنت شاهدى »

قال جاك : « تذكر يا حضرة القاضى الصندوق الذى أخذته منى فى الطريق لتذهب به إلى بيت ماربيتا . إن الصندوق الخالى لا يزال بمنزلك إلى الآن وعليه خط كولين »

ضج المتفرجون فى الجلسة وكاد القاضى أن يصعق ، وطرد الحاجب ، وأجل القضية إلى الغد ، ولكن كولين قبل خروجه من الجلسة قال: « هذه آخر جلسة تجلس فيها أيها القاضى اللص. وسأذهب اليوم إلى وزير الحقانية وأعرض عليه أمرك »

ثم خرج كولين توا إلى محطة السكة الحديدية وقالت الأم فى آخر الجلسة : « على من سيحكم لى بالتعويض ؟ » فقالت ماربيتا : « أنا صاحبة الآنية وقد نزلت عن ثمنها إن كان الملزم به هو كولينى »

وخرجت الأم وابنتها . وفى عصر ذلك اليوم أرسلت الأم ابنتها بأكليل إلى القسيس وقالت لها إنه طلب منها هذا الاكليل من أجل عروس أخرى. فذهبت ماريبتا وهى لا تعرف السعادة التى تنتظرها ولا تفكر إلا فى حادث اليوم. وفى أثناء الطريق قابلها كولين فشكر لها ما قالته أمام القاضى وقال إنه قابل وزير الحقانية وإن الوزير جاء معه . وسألها : « ألم تصفحى عنى ؟ لماذا أنت قاسية علىّ يا ماريبتا ؟ »

فقالت : « إننى سأرد إليك الشريط ولكن هل أنت الذى اشترى الآنية حقاً ؟ »

قال كولين : « وهل تشكين فى ذلك ؟ إن كل ثروتى لك يا ماريبتا »

وظل سائراً معها وهو يحدثها حتى وصلا إلى الكنيسة فاستقبلهما القسيس بقوله : « فليحب كل منكما الآخر كما يتحاب الأطفال »

ويظهر أنه لضعف سمعه قد أخطأ فى سماع الاسم الذى كانت الأم قد ذكرته له . أو لعله لضعف ذاكرته قد نسى هذا الاسم . وعلى أية حال فانه ظن أن هذين هما المطلوب إليه أن يعقد إكليلهما. وقال كولين جواباً على كلمة القسيس : « إننى أحبها من سنوات ولكنها قاسية » وقالت ماريبتا :

« إننى أحبه ولكن هو القاسى »

وأخذا يتعاتبان عتاباً لم يسمع القسيس الأصم كلمة منه، فظن أنه إيجاب وقبول، وضم رأسيهما وهو يقرأ صلاة الزواج ، فتبادلا قبلة حارة على الفم وعقد الزواج والمصلون حاضرون ثم خرجوا يتحدثون عن زواج ماريبتا وكولين

وتأخرت الأم عن الموعد المضروب بينها وبين القسيس لأنها كانت فى انتظار القاضى ليذهبا معاً وفقاً لتدبيرها السابق . فلما لم يأت القاضى ذهبت إليه فى المحكمة فوجدت الوزير قد أجرى تحقيقاً مع القاضى ثم أمر بسجنه فقالت : « هذا عمل شرير من أعمال كولين » ثم هرعت إلى الكنيسة لتعتذر للقسيس عن التأخير ولتؤجل الزواج المزمع، ولكنها وجدت هناك بنتها ، وقد تم زواجها من كولين ؛ فثارت مقدار لحظة ثم شرحت له الأمر فقال كمادته : « عجيبة هى أفعال العناية »

ثم اصطلحت مع كولين لما علمت مقدار ثروته وليقينها بأن القاضى لن يعود إلى منصبه

وذهب العروسان وأم العروس إلى بيت كولين حيث دعى كل أهل المدينة إلى وليمة فخمة استمرت يومين ...

واحتفظ الزوجان ببقايا الآنية المكسورة لأنها هى السبب فى زواجهما

عبد اللطيف النشار

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

موت الحب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

للعاشق من عشقه لذة، أما سامى فله من عشقه لذتان ... لذة الهوى ولذة الفوز . ذلك أن فتاته لم ترتبط به عبثاً ولهواً كما يقع عادة فى الطرق المزدحمة أو الخلوات العامة ، ولا هى فرضت عليه تحت تأثير الظروف كما يحدث كثيراً بين الأقارب ، ولكنه رآها مرة فأعجبته وأطربته ، ثم رآها بعد ذلك مرات فآنس فى روحها اللطيفة جاذبية قاهرة، وأولع بعينيها الصافيتين الجميلتين ، ونظراتهما البريئة الناطقة بالوداعة والاستسلام . وكان — فى تلك الأيام — يدير فى نفسه مسألة مسائل الشباب وهى الزواج، فرجا أن يوفق إلى الاستقرار والسعادة بتلك الفتاة الحسناء . ولم يكن سامى ممن يقنعون بلذة الأمانى ، ولا ممن يتيهون في وديان الأحلام، فشق طريقه بقدمين ثابتتين وقلب جسور ، ولم يثنه عن عزمه أن يعلم أن ابن خال للفتاة يحوم حولها ويطالب بيدها، لأنه كان ذا ثقة بنفسه لاحدلها؛ وكان بطبعه جباراً عنيداً لا يرضى بالهزيمة ولا يستسلم لليأس. فاستمال الفتاة إليه ،وظفر بمواطف قلبها، وارتبطا معاً سراً بالمواثيق والعهود ، ثم تقدم إلى ذويها يطلب يدها ، وكان هؤلاء من الحكمة بحيث جعلوا الاختيار منوطاً بصاحبة الشأن ، واختارت الفتاة حبيبها وأعلنت رغبتها على الملأ، وعلت كلمة الحب وغلب نوره، واكتسب سامى فى ساعة واحدة حباً صادقاً ونصراً عزيزاً ، ودحر خصمه واستهان بكيده وغضبه ، وآوي إلى ظلال الحب يفتتن بنفثاته ويحلق في سماواته ، ويضم إلى نفسه فتاته ، الحسناء ينتظران على الجوى معاً أن تنطوى أيام التأهب ، ويرقبان فى الأفق السعيد أعلام اليوم الموعود ومنية المني ...

إلا أنه حدث ما لم يكن فى الحسبان، فأصيب سامى بحمى وبيلة حبسته فى فراش الألم والذهول ثلاثة أشهر كاملة علقت فيها حياته بين البقاء والفناء، واضطربت قلوب ذويه بين الغصة باليأس والشرق بالأمل، وتمنت له نفوس الشفاء حتى أضناها التمنى، وتلهفت نفوس الى هلاكه حتى أقضتها اللهفة ، ولكن أراد الله له السلامة ، فسلم واجتاز طور الخطر واستقبل دور النقاهة ضعيفاً ذاهلا شارداً كمن يقوم من نوم مائة عام ...

ومضى يسترد صحته ويستعيد قوته فاستطاع بعد حين أن يستأنف تمثيل رواية حياته المألوفة ما بين البيت والمصلحة والخطيبة ، إلا أنه لاحظ على نفسه تغيراً طارئاً ظن أول الأمر أنه أثر من آثار المرض لا يلبث أن يزول، فلما لم يزل ولم يبشر بالزوال ذهب إلى طبيبه يسائله، ولم يفجأ الطبيب المجرب وهز رأسه هزة المتوقع لما حدث ، وقال للشاب إن مرضه قلما يدع فريسته سليما بلا عاهة مستديمة وأنه لم يعفه من ضريبته التى يفرضها على مرضاه فأصابه فى قواه التناسلية بالوهن والضعف اللذين سينتهيان بها فى شهور إلى موت تام لارجاء فى النجاة منه ...

واستمع الشاب إلى قول الطبيب فى ذهول كأنه لا يعى شيئاً ولا يفقه معنى، واستوضحه مرة ومرتين وألقى عليه الأسئلة جماعات وفرادى، وكان كلما يهوى

عليه الطبيب باليأس يفزع إلى نأي الأمل ويستصرخ الاحتمالات البعيدة والفروض المتعذرة ، ولكن الرجل اضطر إلى خنق أنفاسه وقتل آماله ومجابهته بالحقيقة القاسية ...

وهكذا نجا من الموت ، ولكنه لم يهنأ بالصحة ولا اطمأن إلى الحياة . نعم إن صدره ما زال حارا ورغبته ما تزال حية ، ولكنها هادئة رزينة يملكها ولا تملكه ، ويسيطر عليها ولا تسيطر عليه ، وقد يكون من الجائز أن يعال وهنها بعدم تماثله للشفاء التام ، ولكن لا مكابرة في الحق ولا فائدة ترجى من معاندة الواقع ، وأولى له أن يصدق الطبيب ، فلا ريب أن قواه تحتضر وأن ما بها من حياة إن هو إلا اضطراب اليأس تبذله في مغالبة الجفاف والبرودة الزاحفين ...

يالله العجب !... ترى ماذا عسى أن تكون حقيقة الحال التي تتربص به ؟ وما ماهية الشخص الغريب الذي سيستحيل إليه بعد قليل ؟ كيف يكون شعوره ووجدانه ؟ وكيف تكون دنياه ؟ وهل يبقى له ادراكه كما هو وشعوره كما هو وعاطفته كما هي ؟ أم أن موت هذه الغريزة الجبارة يعقبه مباشرة موت كلي لدنياه جميعا يبدله من وجدانه جمودا ومن إدراكه غباء ومن أفراحه سأما وملالا ؟.. ماذا عسى أن يكون حاله ؟ هل حق أنه من الممكن أن تقع عيناه على الحسناء غداً فلا يخفق لها قلبه ولا يثور وجدانه ولا تتيقظ فيه رغبة ؟ أم تبقى له حساسة عواطفه ولكنه يعجز عن إشباعها وهذا أشد قساوة وأبلغ نكاية ...

ولدى بلوغه هذا المبلغ من التفكير الحائر الحزين أحس بالتهاب الخجل يحرق خديه وعرق العار يتصبب من جبينه فتأوه من قلب قنوط وهتف من الأعماق : ما حكمة هذا القضاء ! ... ما حكمة هذا القضاء ! ...

ولم يغفل عن تذكر عطية دقيقة واحدة ، هذه الفتاة الجميلة ذات العينين العسليتين الصافيتين ، التي أحبته فصدقته الحب ونبذت من أجله أقرب الناس إليها . كيف بقي لها بعهوده ومواثيقه ؟ كيف يحقق لها ما مناها به من السعادة والحب ؟ وهل تبقى على حبها ووفائها إذا علمت بحقيقة دائه ؟ إنه لا يظن ذلك ، وما معنى هذا الوفاء لو منحته إياه ؟ وما فائدته ؟ كلا ... كلا ... إنه شذوذ لا ترضى عنه الطبيعة ولا تسينه الفطرة . أما المعقول فهو أنها تتحول عنه من الساعة التي يداخلها فيها اليأس من ناحيته . هذا هو الحق الذي لا ريب فيه ، فالأنوثة معنى أجوف من غير الرجولة ، وكأنهما متضايفان كما يقول المناطقة . والمرأة تنشد حياتها في الرجل ، فاذا يئست من شخص فلن ترضى بجعل اليأس منه يأسا من الحياة كلها ما دامت تستطيع أن تجد رجلا آخر يحقق لها حياتها ... وعطية واحدة من النساء تخضع لناموسهن . . فليعلم ذلك جيدا . . وليرُض نفسه على التسليم به ... وا أسفاه...

فاز خصمه وغريمه وكسب المعركة التي لم يرم فيها بسهم واحد ، فاز بالفتاة التي يحبها ، وفي الغد تعود إليه كسيرة القلب تضرع إليه أن يغفر لها تمردها على حبه ويفتح لها صدره مرة أخرى ، وإنه لفاعل حينما يكون هو قابعا في عقر داره بائسا محزونا لا يدري من أي جنس هو .. !

وغص عند ذاك بمرارة الخيبة والهزيمة والقهر ، وعصرت قلبه آلام الخسران والقنوط ، وضيقت صدره عواطف الحنق والحقد ، فثار ثورة مكتومة على الطبيعة والأقدار وحقد على غريمه ما شاء له الغضب واليأس ووجد على حبيبته البريئة موجدة شديدة ورمق العالم أجمع بعين الحقد والكراهية ...

ولم تحل آلامه الخفية دون اللقاء فكانا يلتقيان كثيراً ، وكانت تلقاه دائماً بعينين فرحتين صافيتين تفيضان بآى الامتنان كأن نجاته من الموت طبعتهما بطابع الشكران العميق . وكانت تجلس إلى جانبه تستمتع إلى همسات ضميره الصادقة وتاق إليه بأنات قلبها المحموم وكل ما بها من عينيها المتنتين ووجهها المتطلع وشفتيها المشوقتين وصدرها الصاعد الهابط ينطق بالحب الصادق واللهفة الحارة ، وكان يجالسها ويحادثها ويضمها إلى صدره بحنان وشوق ويقبل ثغرها قبلات عنيفة ... فاذا أخفت وجهها فى صدره — وأصبح بمأمن من عينيها — تنهد محزوناً أسيفاً ، وقال لنفسه بصوت غير مسموع : كيف أحرم هذا النعيم دون ذنب أو جريرة ! يا لك من بائسة يا حبيبتى ... تمثلين مأساة الوداع وأنت تجهلين ... وكان يعلم أن هذه الحال لن تدوم طويلاً ، فكان يسائل نفسه جزعاً : «ماعسى أن أصنع بالبقية الباقية من حيوبتى ؟ » فليس من الهين أن يفرط الانسان فى سعادته ولا أن يزهد فيها وهى على وشك الذهاب ، فما العمل ؟ هل يعجل بالزواج من فتاته؟ لن يتعذر عليه تحقيق ذلك، ولكن ماذا يفعل غداً إذا حم القضاء ؟ وكيف يحتمل تلك الفضيحة المدخرة له ؟ إنه يصبر على المكاره جميعها فى سبيل أن يتلافى تلك الفضيحة ، وقد فكر جدياً فى أن يهجر حبيبته ، وكأنه يهجرها لزهد أو لملل تستراً على عجزه لولا أنه وجد من نفسه ميلاً إليها لا قبل له بمقاومته ... فما العمل إذاً ؟ ... وخطرت فى باله أفكار حمراء خالطت نفسه فى حذر وتهيب ولكنه طاردها بعنف شديد وأغلق دونها قلبه يأساً وخوفاً ...

وفى ذلك الوقت ذهب مرة لزيارتها فى بيتها فوجده خالياً إلا من خادم عجوز ، فطابت لهما خلوة جميلة وجلسا يتناجيان ويتبادلان الحديث، وكانت عطية تطلب مثل هذه الخلوة لتصارحه بما ترددت فى التصريح به... فقالت له همساً بالرغم من انفرادهما :

« ألاحظ عليك شرود اللب والكآبة فى أحيان كثيرة ... »

« أنا ! ... »

« ألاحظ أحياناً أنك تكون منهمكا فى الحديث معى والبهجة تشمل حواسك جميعاً ... ثم تجمد بغتة قسمات وجهك كأن نفسك اصطدمت على غرة بخاطر أليم ... فتظلم عيناك ، ويثقل جفناك ... وكأنك تشفق من نفاذ عيني فتعود إلى الأخذ بأسباب الحديث ولكن تخونك بهجة الروح ... لماذا ؟ ... لماذا ؟ ... ما الذى يكدر عليك صفوك ؟ »

فاستولى عليه الارتباك ، وقال لنفسه : « آه لو تعلمين ما يكدر علىّ صفوى ... »

ثم قال لها بصوت مسموع كالمتذر : «لعله أثر من آثار المرض »

ولكنها هزت رأسها بارتياب وقالت وهى تديم إليه النظر :

« المرض ؟ ... إنك صحيح معافى »

« أؤكد لك أن نفسى آمنة مطمئنة ولا داعى للقلق مطلقاً ... »

« حقاً ؟ ... »

« لا تدعى للشك سبيلاً إلى نفسك »

وأراد مخلصاً أن يبدد مخاوفها وأن يغير مجرى الحديث إلى ما هما بسببه من الخلوة السعيدة الطاهرة فضمها إلى صدره ونال من شفتيها المنفرجتين الهامتين بالكلام قبلة طويلة حارة رطبت بريقها شفته ... ولبثا فى غيبوبة غرامية يحس خلالها بصدرها الصاعد الهابط بين يديه ويشعر بملامسة نهديها لصدره المضطرب الخافق ، وكانت تلك اللامسة الرقيقة كأنها مس شيطان جذبه من عالمه الدنيوى ، إلى جحيم متقد تفور فيه الشهوات ، ويسيطر الجنون فخفق قلبه بعاطفة نارية ، والتمع ذهنه بأمنية خبيثة؛ وسرعان ما وجد جواب السؤال الذي عذبه وسهده: « ماذا أصنع بالبقية الباقية من حيوبتى » حاضراً بين يديه ... وليكن ما يكون ...

وأحست عطية بأنه يضمها إلى صدره بعنف لم تعهده من قبل ... وأنه يلتهمها بعين وحشية تتقد فيها نظرة جنونية ... فداخلها خوف وهمت بالابتعاد عنه ... ولكنه تعلق بها بقوة ، ولف يديه حول خصرها بعنف وفظاظة ، فاشتد بها الخوف وطالعت صفحة وجهه بنظرة مريبة فامتلأت رعباً وأخذت تقاومه مقاومة جدية وتدفعه عن نفسها بما أوتيت من قوة وتهتف به صارعة متوسلة باكية ، وما يزداد إلا عنفاً وجنوناً . فلما لم تغن عنها جميع محاولاتها صرخت بأعلى صوتها تستغيث بالخادم العجوز ... وشلت المباغتة حركته حيناً، فجمد ، ثم استولى عليه غضب كاسر فرفع يمناه وضربها فى وجهها ضربة شديدة وقعت على أثرها على الأرض وقد انعقد منها اللسان ... فارتد إلى الوراء مترنحاً كالثمل وغادر البيت فى ذهول شديد

ما الذى فعل ؟ ... كيف سولت له نفسه محاولة اغتصابها ؟ ... بل هب أنه فاز بمأربه فماذا كانت تكون العاقبة؟ ... كيف انقلب وهو الوديع الدمث وحشاً لئيما سافلا بلا تدبير سابق ولا تعمد مبيت ؟ . كيف هانت عليه فأطاعته يده الشريرة فى توجيه تلك الضربة القاسية إلى وجهها الجميل ؟ ... يالله من ألم أليم وخزى باق لا يزول ...

ولما هدأت نفسه قليلا وسكت عنها الغضب وخفتت بها أصوات التأنيب وأنات الخزى والخجل واستطاع أن يذكر أمرا آخر فيطيب بذكره ويرتاح له، ذكر أنه تخلص من فتاته، وهو وإن كبر عليه إلا أنه ضرورة لامعدى عنها؛ وقد تخلص أيضا بغير افتضاح سره وهو ما كان يرجو ويتمنى، ولئن يفقدها وهى تعتقد وغريمه يعتقد أيضا — أنه رجل غادر سافل خير من أن يفقدها قهرا وعجزا وهى ترثى لمواته وغريمه يطير فرحا وشماتة به ... ومهما يكن الأمر أليما معذبا إلا أنه أوفق حل وتفاد للكارثة المتوقعة من حين لآخر ...

وعلى أثر هذه الحادثة مباشرة انفلت منه زمام نفسه ، واختلت موازينه واضمحلت إرادته فغلبه الفهر واليأس وحز فى نفسه اندثار سعادته ، وتهدم آماله، فأغرق فى الغواية إغراقاً وأوغل فى الفجور إيغالا ، وكان أكثر ما يرى فى رفقة نسوة ممن اصطلح على تسميتهن بالساقطات ، وكان يتعمد أن يظهر معهن فى سبيل حبيبته أو غريمه ، وكان يأتى هذا بشراهة ليتزود تزود الوداع وليستر على العجز

الكامن فى أعماقه ، وليوهم غريمه البغيض بأنه زاهد لايائس ؛ وأقسم ليبقين على سلوكه هذا ولو بعد حدوث الكارثة دفناً للظنون وشفاء للصدر وقهراً لكل شامت أو ساخر ... ثم وقعت الواقعة وتم التطور المقدور ...

ولسنا هنا بسبيل وصف هذا الداء بصفة عامة فقد يحدث أنواعاً لا تحصى من الجنون والشذوذ ولكنا حيال حالة خاصة ...

وقد شاهد سامى التغير بارتياع ودهشة، وأحس قانطاً بالحرارة تتسرب من طوايا قلبه ، واستولى عليه جمود وتأفف بلغا حد الزهد والشبع، وسرت فى عروقه برودة الشيخوخة والهرم ... حقاً إنه تغير خطير غريب ...

كانت تطيب له معاشرة النساء ويسعده الجلوس إليهن والاستماع لهن، فزهد فى ذلك كله غير آسف ولاحزين، ولاأحس بأنه فاقد بفقدهن شيئاً ذا بال، ولم ينظر إليهن إلا بالعين التى ينظر بها الرجل الكامل الرجولة إلى اللعبة التى كانت تستهوى طفولته وتستأثر بها

وكان أخوف ما يخافه أن تبقى رغبته ناشطة قوية ويعجز عن إشباعها ، ولكن الموت أدرك الرغبة نفسها واقتلع الشهوة من جذورها فانهار معبد المرأة فى نفسه وتبخرت العواطف التى تخلقها فى قلوب الرجال ، فاستهان بالأمر ولم يذق أسفاً ولا وجد ألماً ولا حزناً، فكان فى حرمانه كما يكون فى شبعه ، إذ ماذا تعنيه أى امرأة بعد فقدان هذه الرغبة ؟ تغدو صورة غريبة سخفها ظاهر وحسنها غامض لا معنى له ... كالمال فى عين الزاهد الصادق الزهد ... ليته كان يعلم ذلك من قبل . . . ! لقد حزن فبالغ فى الحزن . . . وأسف فغالى فى الأسف . . . وتحسر فجن حسرة . . . وحاذر من أن يفتضح أمره لدى حبيبته وأشفق من أن يشمت به غريمه . . . لماذا ؟ . . . لماذا ؟ . . . لا حزن ولا أسف ولا حسرة . . . وليذع فضيحته من تسره إذاعتها، وليشمت به من تطيب له الشماتة به ... إنه أسمى من ذلك وأعلى ... إنه لايبالى بالتافهات...

* * *

وأعجب ما حدث له بعد ذلك أن وصلته رسالة من حبيبته — أو من كانت حبيبته — تطلب إليه أن يوافيها إلى موعد . . . وكانت مصوغة فى قالب مختصر ، شديد الاختصار يذكر بلهجة الرسالات البرقية ، فدهش دهشة عظيمة وسأل نفسه ماذا تريد عطية منى ؟ وما الذى دعاها إلى تحرير هذا الخطاب ؟ وهل يحسن به أن يذهب إلى لقائها أم أولى له أن ينزوى ويختفى من أفقها إلى الأبد ؟ وأحس بدبيب الخوف يسرى إلى قلبه ولكنه لم يستسلم إليه وصدقت عزيمته على الذهاب ...

وفى الموعد المضروب جاءت تسعى إليه فى مشيتها الرقيقة وحركاتها الراقصة . ولما صارت منه على بعد خطوة رمقته بنظرة عتاب أنبأ بريقها الخاطف عن بشائر ابتسامة خفيفة تغالب للظهور ، واكتفت بها تحية وجلست إلى جانبه على الأريكة المظللة بأغصان الكافور ... إنه يعلم بما يسكنها ويعلم بما يربكها ... فلقد أتته حقاً ولكنها أتت مقهورة متألمة ، وأقل ما تنتظر الآن أن يتحمس للقائها ، ويفيض مخلصاً فى الاعتذار وطلب الغفران ... إنه يعلم بذلك كله ،

ولكنه لا يجد من نفسه أدنى استعداد للرياء والتمثيل فظل ساكناً جامداً يقلب ناظريه فى قسمات وجهها وجيدها ويديم النظر إلى نديبها وساقيها العاريتين . ويتعجب أيما تعجب ... كانت هاتان العينان تنفذان إلى أعماق قلبه وتفتحان مغلق مشاعره فتبعثان به حياة آيتها القوة والجمال والنشوة ... وكان هذا الجسم البض يطلق شرارة حامية إلى أعماق صدره تسرى إلى فرائصه وأعصابه فتجعلها شعلة من نيران موقدة ... فماله اليوم لا ينفذ سحر إلى قلبه ؟ ولا يقوى جمال على بعث عواطفه ؟ وما بال صدره هادئاً بارداً كأنما قدت ضلوعه من الثلج ؟ وما بال هاتين العينين لا تنفذان إلى قلبه ولا تفتحان مغلق شعوره ؟ ما بال هذا الجسم لا يبعث ناراً ولا يشعل وقوداً ؟ كيف آضت هذه النظرة لا معنى لها ؟ وكيف أمسى هذان النهدان ولا مغزى لهما ؟ ... يا عجباً ... وكان لابد له أن يقول شيئاً فقال بصوت هادئ :

« كيف حالك يا عطية ؟ »

ولم تعجبها لهجته ولا ارتاحت لنبرات صوته فحدجته بنظرة لوم صارمة وقالت :

— يا غادر !

فأحنى رأسه أسفاً وذكر لقاءهما الأخير وما وقع فيه فقال :

— مسنى الجنون ذلك اليوم ... كم أنا آسف .. غفرانك ...

— وأنا استولى على رعب شديد فدافعتك بقوة وما أدري ...

— قد أكرمتنى فوق ما أستحق ... وسكت عن سفاهتى ...

— مع هذا فقد غضبت على غضباً شديداً ، لما تغفره لى ...

— أنا ... ؟

— كيف السبيل إلي النكران ؟ لقد انقطعت عنى ... وهجرت مودتى ... وتناسيت عهودنا ، وقد انتظرت طويلاً أن تثوب إلى عقلك وترجع إلى كيما نصفى حسابنا ... انتظرت طويلا ... وانتظرت عبثاً ...

— إنى آسف يا عزيزتى ...

— وليتك قنعت بكل هذا... بل رأتك عيناى تسير فى رفقة ... إخص يا ... كم تألمت ، إن الغدر قاتل أليم ... »

أوّاه ... إنها تنفخ فى « قربة مقطوعة » كما يقول المثل الدارج، حقاً إنها تتكلم فى حماسة وحرارة وصدق ، ولكن كيف له باستجابة دعائها أو تلبية ندائها ، فاكتفى قهراً بتنكيس رأسه ، وقد روعت لجوده وضاق صدرها به واحتارت فى تعليله وأحست بيد اليأس تقبض على أنفاسها فقالت جزعة مذعورة

— مالك ..؟

فلما لم تبد عليه أى رغبة فى الكلام عادت تقول بلهفة :

مالك ؟ أمريض أنت ؟ .. لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثنى ؟... لم لا تكلف نفسك مشقة الاعتذار إلى ؟ ... تكلم بحلو أو بمر ... لن أتردد فى نسيان الماضى إذا طلبت إلى ذلك ... كلمة واحدة ونبدأ صفحة جديدة ... أواه ياسامي إنك لا ترغب فى الكلام ...

— إنك لا تعلمين ...

— تكلم ... تكلم ... ماذا ينبغى أن أعلم ؟

ما فائدة المواراة والتردد؟ وما وجه الحكمة فى مد أجل هذا اللقاء الذى قد يكون آخر لقاء بينه وبين امرأة ؟ وآخر ما يسمع من حديث الحب وأهواله ؟ لا فائدة ترجى، وأولى له أن يصارحها بالحقيقة ...

الحقيقة ! ...

كان بالأمس يشفق من ذلك إشفاقا شديدا ويفتديه ببذل النفس ومقارفة الجرائم، أما الآن وقد ماتت تلك الشجرة الباسقة المتفرعة فقد سارع الجفاف إلى ساقها فذبلت أغصانها واصفرت أوراقها وتناثرت أزهارها وأمست شبحاً كئيباً لا يرجو بعثا ولا نشورا . لقد أظلم عالم الحب البهيج وأقفرت وديانه وسكتت بلابله وتبددت أخيلته وافتضحت أوهامه واستحال مقبرة لا حياة فيها ولفظا لا معنى له وذكر لا أسف عليها . . . وجمع فلول قواه وذكرى للفتاة العاشقة الحقيقة العارية فى عبارة مقتضبة وتلقى نظرتها اللئاعة الحيرى بهدوء عجيب ، وانتهى كل شىء

أهكذا ينتهى الحب ؟ ...

وهل تنتهى عوالم الانسان الأخرى الشاسعة وأحلامه السامية إلى أصول غرائز خافية فى طبيعته ؟ وهل إذا كتب على إحداها الموت تبدد عالمها وتلاشت أحلامها وأضحت هباء وأوهاما ؟ أمن الممكن أن يكون نصيب الحق والجمال والبطولة والجلال نصيب حب سامى السىء الحظ ؟

نجيب محفوظ

كتابان قيمان

سيظهران فى أواخر أغسطس

هكذا تكلم زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر

للشاعر الحالم ألفريد دى موسيه

وكلاهما ترجمة الأستاذ

فليكس فارس

من أرسل ٢٠ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقيم داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد» ، ومن أرسل ٢٥ قرشا يرسل له أيضاً كتاب « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » تاليف المترجم — العنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

مفارقات الشارع

للكاتب الأمريكي دوس باسوس

بقلم الكاتب الأديب محمد محمود دقاورة

خسر (مريوذر بوك) كل ماله كما أضاع ما كانت تملكه شقيقاته وبنات عمه وخالاته ... وفي ساعة من ساعات الضيق واليأس قال محدثاً نفسه :

— سوف أضع حداً لتلك المهزلة بطلق ناري واحد أصوبه نحو قلبي ... ولن يتأخر تنفيذ ذلك عن الساعة الثانية بحال من الأحوال ... الساعة الثانية تماماً ...

وتلمس مسدساً آلياً ذا عشر طلقات كان موضوعاً بعناية في الجيب الأيمن لمعطفه الثقيل ، ثم خرج يتسكع في طرقات برودواي

كان يسير في خطى متعثرة بطيئة كخطى المخمور . ولا غرو فإنه لم يتناول طعاماً منذ يومين كاملين لا لسبب إلا أنه لم يجد ما يأكل

ألقى نظرة على شوارع المدينة المترامية الأطراف وتمتم مخاطباً إياها ، وكأنه يتمثلها أحد أبناء البشر يسمع ويعي ما يوجه إليه من حديث :

— كم أكرهك أيتها المدينة الملعونة ! وكم كنت أتمنى أن تكفي تسع رصاصات للقضاء عليك وتدميرك ... آه لو كانت تكفي تلك الرصاصات التسع لخرابك ! إذن لما تردّدتُ لحظة واحدة في إطلاقها عليك متتابعة كالسيل الجارف أو المطر الهاطل ...

كان هذا أسلوباً عنيفاً غير لائق من أساليب التفكير والتعبير وخاصة إذا علم أن مصدره كان شاباً في مقتبل العمر تلقى قسطاً وافراً من التعليم والتهذيب ، ولكن المسكين كان فاقداً لكل شعور ، مجرداً من كل وعي

أما المدينة وكيف تلقت كلماته الثائرة النارية فلا حاجة بنا إلى القول بأنها لم تعر ذلك التفاتاً ، كما لا حاجة بنا إلى القول بأنها استمرت في حركتها ولغطها وضوضائها وجلبتها كما كانت قبل أن تتحرك في جوها تلك الموجات الصوتية الضعيفة الخائرة التي انطلقت من فم مريوذر بوك

ولو كانت المدن كالبشر تشعر بما يدور حولها لكان شعور هذه المدينة في تلك اللحظة شعور السخرية من المجنون الذي يريد تدميرها والقضاء عليها برصاصات تسع تخرج من فوهة حديدة صغيرة موضوعة في جيب معطفه ...

والذين جربوا اليأس والبأساء من الناس كثيراً ما شعروا بخيبة الأمل عند ما كابدوا الشعور الذي كان مريوذر بوك يكابده في هذه الآونة

يمتلىء قلب الواحد منهم غيظاً وحنقاً على المدينة التي يعيش فيها والتي يعتقد في قرارة نفسه أنها سبب شقوته وبلائه ويتمنى أن يسمع المدينة رأيه فيها ولكنها لا تشعر به ولا تحس بما يتأجج في صدره من نيران

وفي اعتقادي أن الثائر على مدينة من المدن لن يستطيع أن يشفي غليله منها كما يحب ويهوى إلا إذا حدث بصدفة غريبة أن كان هو نيرون بعينه

* * *

الساعة الآن الواحدة ...

اخترق مريوذربوك أحد شوارع ميدان هيرالد متجها نحو عمارة كبيره هى إدارة إحدى الصحف اليومية الكبرى ، فما كاد يقف هناك لحظة حتى خرج من العمارة شاب تبدو على وجهه وحركاته إمارات الجد والتفكير، غير أن عينيه كانتا تفتقران كثيراً إلى بريق الذكاء فى نظراتهما

وقف الشاب على عتبة الدار واضعا كلتا يديه فى جيبي سترته الثمينة واستسلم للتفكير غير ناظر إلى ما حوله؛ فانتهز مريوذربوك هذه الفرصة واقترب منه ثم وجه إليه الحديث قائلا :

— أسألك المعذرة ياسيدى . ألست مخبراً من مخبرى الجريدة ؟

فهز الشاب رأسه ولم يصدر عنه إلا صوت عميق كصوت الخنزير قائلا :

— نعم ...

— إذن فإنى متحفك بقصة نادرة

صمت المخبر ، ولكن مريوذربوك استمر فى حديثه قائلا :

— قد نعيش فى الحياة نكرات لا أهمية لها، ولكنا جميعاً نحب أن نشعر قبل انقضاء تلك الحياة أن موتنا سيحدث أثراً ما ولو كان طفيفاً ...

فكان جواب المخبر صوتاً آخر شبيهاً بالأول هو:

— وبعد ؟ ! ...

قال مريوذربوك فى لهجة الجد والصراحة الصارمة :

— عند ما تحل الساعة الثانية سأطلق النار على نفسى

فبدت على المخبر دلائل خيبة الأمل إذ كان عمله فى الجريدة قاصراً على الأخبار السياسية ، ولكنه قال موجهاً السؤال إلى محدثه الغريب الأطوار :

— وهل أنت من أصحاب الأسماء المعروفة ؟

— لا ...

ولم يزد على ذلك حرفاً لأنه كان يعلم أن من العبث إضاعة الوقت في ذكر اسمه واسم الأسرة التى ينتسب إليها ؛ وسواء قال إنه يدعى مريوذروأنه من أسرة بوك إحدى أسر ولاية جورجيا أو لم يقله فالنتيجة واحدة ، وهو أنه نكرة ابن نكرة ومجهول من أسرة مجهولين

قال المخبر فى لهجة تنم عن اللوم والتوبيخ :

— أظن أنك قلت قبل الآن إنك ستقص على مسامعى قصة ذات أهمية ؟ فهل عزمك على قتل نفسك هو تلك القصة النادرة ؟

— أجل .. ألست على الأقل أحد أبناء البشر ؟

— أبناء البشر ؟ يالك من معتوه .. أيتساوى أبناء البشر في كل الأمور ؟ إن فيهم من هو أرخص وأتفه مما تظن يا عزيزى

وما كاد يصل إلى هذا الحد من حديثه حتى أبدى حركة دلت على رغبته فى الانتهاء من ذلك الحديث الذى لا يقدم ولا يؤخر وهمّ بالانصراف

غير أن مريوذ ربوك اعترض طريقه وصاح به قائلا :

— يالك من كافر جاحد ... أتكفر بالحياة يا هذا وبقدسية الروح ؟ ... ولكن لا ... ليس لى أن أنتظر منك غير هذا . أفلست صخراً من صخور نيويورك التى خلقت على صورة البشر وألبست ملابس الرجال ...؟ ذلك رأيى فيك فهل

سمعته ... وهل علمته ؟ وأظن أنى سأبدأ بقتلك أنت قبل قتلى نفسى

— لا ، لا ياعزيزى ... ليست لى رغبة الآن فى الموت، ولن أسمح بحدوث ذلك قط، فإن لدى صفقة من أحسن الصفقات

ووضع مريوذر بوك يده فى جيب معطفه الأيمن وقبض على المسدس الصغير بين أصابعه وهم باطلاقه ولكنه عدل عن رأيه فى اللحظة الأخيرة لا خوفاً من المصير أو رهبة من الموقف... ولكن لأن فكرة عامضة طارئة مرت بذهنه المكدود لا يدرك لها كنهاً ... وأخرج يده فارغة من غير سوء ...

وبذلك ابتعد الخبر عن القبر المحفور الذي كاد يتردى فيه ...

واستأنف مريوذر حديثه قائلا :

— أنا جائع ...

فلمعت عينا الخبر قليلا وقال :

— لقد ذكرتنى .. ياعزيزى .. لقد ذكرتنى.. أنا الآخر أشعر بالجوع

ثم عبر الشارع متجها نحو مطعم قريب سرعان ما اختفى وراء بابه الدائر

لم يتكلم مريوذر حينئذ ولم يبد حراكا، غير أن صوتا من أعماق نفسه كان يتكلم ويتكلم ...

— ياهذا الانسان المتحجر القلب والعاطفة ..! يا لهؤلاء الناس أبناء هذه المدينة الملعونة !

ومكث فى صمته قليلا يستمع إلى ذلك الهاتف فى أعماق نفسه، ثم تكلم أخيراً فى صوت منخفض ولكنه عميق ، إن دل على شيء فعلى الاصرار والعزم الأكيد قال :

— نيويورك .. إنك الآن فى قفص الاتهام .. إنك الآن على كفة الميزان، إننى أمهلك ساعة واحدة: فان دعيت إلى الفداء فى خلال هذه الساعة نجوت من التجربة الماثلة التى قدرت لك ، وإن لم أدع فالويل لك. سأقتل نفسى... نعم . ولكنى قبل أن أفعل ذلك سأبدأ أولا بقتل أكبر عدد ممكن من أبنائك : أبنائك الناجحين الموفقين الذين تحتضنيهم وتحدبين عليهم . أكبر عدد ممكن.. أكبر عدد أستطيع أن أصل إليه برصاصاتى التسع ... نيويورك ! لقد انتهى كل شيء .. نيويورك ، أنت الآن على وشك مشاهدة مذبحة مروعة من مذابح التاريخ

كانت فكرة عابرة ، ولكنها أطربته وراقته ؛ ولا عجب فقد جبل حباً لألاعيب الصدف ومفارقات الحظوظ .

واستسلم للتفكير وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه :

— قد يحدث الآن أن يخرج رجل ناجح أو امرأة ناجحة من بين ألوف الناجحين والناجحات فى المدينة فيكون على يديه أو على يديها إنقاذ الموقف ، وبالتالى إنقاذ تسعة آخرين من موت محقق — إذ أنه سيحتفظ بالرصاصة العاشرة لنفسه — وقد لا يحدث هذا فتكون النتيجة وبالاً

وهنا استولت عليه نزعة من نزعات الكبر والغرور، وسرت فى جسده رعدة كرعدة المحموم .. أليس هو الآن قادراً على سفك الدماء ! ...

وقهقه ضاحكا من تفاهة قيمة الحياة ... حياة الانسان

وكانت هناك امرأة تسير مخترقة الطريق على مقربة منه فى تلك اللحظة فلم تكد رنة ضحكته تصل

إلى أذنيها حتى التفتت إلى الوراء لترى مصدر تلك الضحكة الساخرة وبذلك تلاقت عيونهما ...

كان مريوذر بوك حسن المنظر وكذلك كانت المرأة ، ولكنها كانت إلى جانب حسن منظرها من النساء اللآتى تكفى نظرة واحدة من الرجل إليهن لمعرفة حقيقتهن ! ...

تقدم مريوذر بوك نحو المرأة ووجه إليها الحديث قائلا :

— أرجو المعذرة يا آنسة ، ولكن ألا توافقين على تناول الغداء معى ... أ ... أ أعنى على أن نتناول الغداء معاً

فضحكت ضحكة رنانة وقالت :

— تعجبنى جرأتك

والواقع أن جرأته كانت تعجبها . واقتربت منه حتى كاد جسدها يلتصق بجسده وقالت :

— وأى مكان تختار ؟

— المكان الذى يروقك أنت .. ذلك متروك لتقديرك ، لأنى معتمد عليك فى دفع ثمن ما سنأكل

فضحكت ظناً منها أن حديثه هذا نوع من أنواع المزاح المبتكر ، ولكنها عندما نظرت إلى وجهه أيقنت أنه يعنى ما يقول

قالت :

— تعجبنى جرأتك

وفى الحقيقة لم تكن جرأته موضعاً لاعجابها فى تلك اللحظة كما كانت منذ دقيقة واحدة ، وسبحان مغيّر الأحوال !

واستأنف مريوذر بوك حديثه قائلا :

— قد تبدو ملابسى فى حالة حسنة إلى هذه اللحظة ، ولكن لاتغرنك الظاهر ، فأنا لا أعدو أن أكون رجلا خائباً ، محطماً وفوق ذلك فإنى جائع ؛ بل لاتكفى كلمة الجوع للتعبير عما أشعر به من حاجة إلى الطعام . لم أتبلغ بلقمة واحدة منذ يومين يا آنستى العزيزة . إننى لا أخدعك ولا أكذبك القول ولا أموه عليك ، والله شهيد على ما أقول ؛ وعند ما وقع نظرى على شخصك الكريم توسمت فيك الخير ، وأحسست أن الحديث معك فرصة لاتعوض ؛ والجوع كما أعتقد له حسنة واحدة هى أنه يهب الانسان خبرة نادرة بالوجوه . لذلك قامرت على وجهك

غير أن كل هذا الحديث العذب المنمق لم يبلغ الغاية التى كان المسكين يرمى إليها . فرمقته الفتاة شزراً وقالت فى لهجة الشخص الذى يدفع عن نفسه إهانة لحقت به :

— دع عنك هذا الملق المبتذل ووفر عليك عناء الرياء والمداهنة ؛ واعلم أننى خدعت فيك حين ظننت أنك رجل شريف ! ...

ثم انطلقت من أمامه مسرعة ؛ وعند ما حاول أن يتبعها توقفت عن السير والتفتت إليه صائحة به :

— أغرب عن وجهى أيها اللص الذى يعيش على فضلات النساء . أغرب وإلا دعوت رجل الشرطة ليقودك إلى المكان اللائق بأمثالك

وابتعد مريوذر بوك ... ابتعد

* * *

الساعة الآن ثلث واحدة و ... ومعنى ذلك أنه انقضى من المهلة التى حددها ذلك البائس لتنفيذ خطته ثلث ساعة يصبح بعدها فى خبر كان بعد أن يمحو من الوجود عدداً لا يعلمه إلا الله ممن قدر لهم الموت برصاصات مسدسه

سار على غير هدى إلى أن وجد نفسه أخيراً

أمام محطة من المحطات حيث لمح شخصاً يدل مظهره على أنه ذو مركز خطير فى الحياة يخرج من أحد الأبواب . تأمل وجهه بعينيه الزائغتين ليقرأ فيه ما طبعته أخلاقه وميوله ، فدلته وجنتاه المتوردتان على أنه ذو طبع مرح ومزاج منبسط . لا شك أن سنوات طويلة قضاها هذا الرجل فى البر بالناس وإسداء المعروف إليهم هى التى أكسبته هذا الطابع وتلك الطبيعة

اقترب مريوذر بوك من ذلك الرجل العظيم وقال فى ذلة وانكسار :

— لا تؤاخذنى يا سيدي على فضولى وجرأتى ولكنى توسمت فيك الخير واستبشرت بلقائك . ويغلب على ظنى أننى الآن فى حضرة أحد وزرائنا العظام . أليس السيد وزيراً من وزراء الدولة ؟

فأخرج الرجل من جيبه منظاراً ذا سلك ذهبى وقربه من عينيه وهو يقول فى لهجة مرحة :

— نعم إننى وزير ، فما حاجتك يابنى؟

— أنا جائع

— جائع ... ؟ لم يخطر ذلك ببالى قط

— ولكنه الواقع يا سيدي ، فهل تدعونى لتناول الغداء ؟

— إه ...

كان سؤالاً محيراً ، ولكن الرجل تقبله قبولاً حسناً ولم يتبين في حركاته ما يدل على الضيق أو التذمر ، بل صمت لحظة وكأنه يحاول صياغة رد لا يصدم شعور محدثه ؛ وأخيراً قال :

— يا عزيزى الفاضل ... أنت تعلم ... تعلم حقيقة ...

ثم أسند إحدى يديه على كتف مريوذر بوك بشكل ودى يدل على العطف ورقة العاطفة

وانتظر مريوذر تتمة الجملة التى بدأها الوزير بصبر نافد ، ولكن هذا لم يتكلم بل اكتفى بأن ضحك ضحكة قصيرة لعله اعتبرها ذات معنى

قال مريوذر بوك :

— ولكنى أطلب إحساناً ...

فما كاد الوزير يسمع كلمة الاحسان حتى تنفس الصعداء كمن يعثر على ضالة طال بحثه عنها وقال :

— حسن ... إذن فأنت تطلب إحساناً ... هل قصدت ... ولكنى أحب قبل أن أستطرد فى الحديث أن أسألك سؤالاً

— إننى رهين إشارتك يا سيدى

— هل أنت جاد فى حديثك أم هو نوع من أنواع المزاح ؟

— وهل يجوز المزاح فى شأن كهذا ، بل أنا جاد يا سيدى كل الجد

— هل اتصلت باحدى الجمعيات أو المؤسسات الخيرية المعروفة ؟

— كلا ... وأحسب أن ...

فقاطعه السيد قائلاً :

— يا ... يا ... يا ...

ثم أخرج بطاقة من حافظة نقوده وتناولها بين أصابعه وأخذ يدوّن عليها بضع كلمات وهو يقول :

— سأعطيك بطاقتى الآن وما عليك إلا أن تقدمها إلى (سكرتير) الجمعيات الخيرية المتحدة ... إنها مؤسسة حسنة النظام كما أعتقد. هناك سيتحرون أمرك وأمر سيرك وسلوكك وظروفك وأخلاقك وسوابقك

— كل ذلك لكي يطعموني وجبة واحدة ؟

— بطبيعة الحال

ولما فرغ من الكتابة ناول مريوذر البطاقة وكأنه يناوله مفاتيح الدنيا بأسرها وهم بالانصراف ولكن مريوذربوك قال

— ولكني أريد أن تقوم أنت باطعامي الآن

فابتسم الوزير وهو يقول :

— لقد فعلت ياعزيزي ... إنني مشترك من مشتركي هذه المؤسسة الخيرية وهذه هي طريقتي الوحيدة في الاحسان وهي طريقة مثلى توفر كثيراً من الزمن

— سؤال أخير ياسيدي

— وما هو ؟

— ألا تريد سماع قصتي ؟ ألم تثر فيك حالي ولو قليلا من الاهتمام ؟

فبدا الضيق على وجه الوزير جلياً ولكنه قال مخفيا ما يدور بخاطره

— قصة ... قصة . هناك ياولدي سيستمعون إلى قصتك بآذان واعية . إن عملهم منظم ولديهم ملفات كثيرة كلها قصص وحكايات ، مئات من القصص ... أكوام من ملفات القصص لكل ملف منها رقم خاص وستأخذ قصتك رقما من هذه الأرقام قد يكون المائة بعد الألف

ثم ختم حديثه قائلا في شيء من التحمس :

— أؤكد لك أن طريقتهم من أحسن الطرق . أستودعك الله

كان الرجل يريد إنهاء الأمر كله بهذه الجملة، غير أن مريوذر تشبث بأذياله في إصرار عجيب وهو يقول

— ألم تجد شيئا من الغرابة في أمري ؟ ألا تريد أن تعرف لماذا أنا جائع أليس لديك الوقت الكافي للاستماع إلى بنفسك ؟

— الوقت .. الوقت يابني هو الشيء الوحيد الذي يعوزني والذي أبحث عنه في ظرف كهذا فلا أجده ولكني سأدلك على ما تفعل

ثم أخرج بطاقة ثانية من الحافظة المنتفخة وكتب عليها بضع كلمات أخرى ثم قدمها إلى مريوذر وهو يقول :

— إذا أردت أن تقص عليّ حكايتك فخذ هذه واذهب إلى مكتبي حوالي الساعة الثالثة والنصف . هناك ستجد كاتبتي المختزله فأملي عليها ما تريد وستقوم هي بعد ذلك بكتابته على الآلة الكاتبة وتقديمه إليّ ...

ثم انسحب من أمامه وذهب

* * *

كانت الساعة وقتئذ واحدة وخمسا وعشرين دقيقة ... أي أنه بقيت من ساعات الحياة خمس وثلاثون دقيقة !! ...

استأنف مريوذر بوك تسكعه في شوارع نيويورك متصفحاً وجوه المارة واعترض طريقه أحد المتسولين فلم يتردد في منحه بطاقتي الوزير اللتين تخولان لحاملهما دخول الجنة بغير حساب، ثم اتجه ناحية الشرق ماراً بالشارع الثاني والأربعين .

وإذا كانت حياة الانسان قد انقضت ولم يبق في عمره إلا دقائق معدودات فلماذا لا يقضي هذه الدقائق في الشارع الخامس ... هناك يستطيع أن يمتع النظر بأحسن المشاهد وأعظمها

والواقع أن هذا الشارع كان أنسب مكان لمن كانت غايته كغاية صاحبنا . في ذلك الشارع يستطيع

الانسان أن يلتقى بأعظم الشخصيات وأهمها وماذا يريد هو غير ذلك ؟

وما كاد يقف هنـاك لحظة قصيرة حتى رأى أمامه عجباً . رأى مشهداً لم يكن يخطر له ببال؛ على أن ذلك المشهد لم يكن حادثاً خطيراً أو معركة هائلة كما لم يكن رغيفاً من الخبز معه قطعة من لحم خنزير مشوى ... كلا ... إنما هو رجل

لم يصدق مريوذر عينيه فى بادئ الأمر وقال مخاطباً نفسه

— هذا غير ممكن ... هذا مستحيل ... إنه شخص آخر

وفى هذه اللحظة اقترب الرجل منه فعلم مريوذر أن عينيه لم تـكذباه الخبر

أما الرجل فـكان ج. ديبون إيفانز أكبر رجال المال فى نيويورك ، نعم هو بعينه ، إن مريوذر بوك يعرفه حق المعرفة ويستطيع تمييز وجهه من بين مليون وجه

هاهوذا المستر إيفانز على قيد شبر واحد من فوهة مسدس مريوذر بوك . أليست هذه مفاجأة يطيش لها صواب أكثر الناس ثباتاً وأصلبهم عصباً فضلا عن إنسان محطم لم يذق الطعام منذ يومين ؟ غير أن مريوذر بوك تلقاها صامداً لا يتأثر وكأنه الجبل الأصم

بعد دقائق معدودات يصبح المستر إيفانز صاحب الثروة التى تزرى بكنوز سليمان ومالِ قارون خبراً بعد عين ضحية من ضحايا اللعبة الخطرة التى يمارسها ذلك المغامر المجنون الجائع

أحس مريوذر بوك بقوة غير عادية، وكأن دماً جديداً يجرى فى عروقه الجافة... هاهى ذى مفارقات الطريق تضع تحت رحمته مصير عدد من دور المال الـكبرى فى نيويورك لا يقل عن نصف ما فيها من دور ، وعلى تصرف مستر إيفانز معـه يتوقف ذلك المصير ونوعه ، بل هاهوذا القدر الساخر يضع لقمة وقطعة من اللحم أو قليلا من الحساء فى كفة ميزان ويضع فى كفته الأخرى نصف ثروة أمريكا ولا يعلم إلا الله أيهما تـكون الراجحة ! ...

فى استطاعة سبابة مريوذر بوك الموضوعة فوق زناد المسدس أن تقرر الآن لا مصير رجل واحد ، بل مصير شعب بأسره

قبض على المسدس وصوب فوهته من تحت الثوب إلى قلب المستر إيفانز وتقدم خطوة نحوه وهو يقول فى لهجة تنم عن الأدب :

— كم الساعة الآن يا سيدى ؟

ومضت ثانية قبل أن يجيب الرجل خيل لمريوذر فى أثنائها أنه يرى رأى العين عمارات المصارف تنهار واحدة واحدة، وطرق السكك الحـديدية تتحطم طريقاً طريقاً ، والمصانع تغلق أبوابها والأسواق تتعطل ، والمناجم تتوقف عن الانتاج ، والمحاصـيل الزراعية تترك فى الحقول ، والسفن التجارية ترابط فى الموانئ ليل نهار ، والكساد يعم جميع المرافق ، وراية الخراب ترفرف فوق المدينة

أخيراً رفع المستر إيفانز سيجاراً ضخما من فمه وألقى نظرة شـك وارتياب على مريوذر بوك وهم بالانصراف، ولـكنه عاد فعدل عن رأيه وأخرج ساعة فضية كبيرة الحجم ألقى عليها نظرة وقال فى لهجة يشوبها قليل من التذمر :

— الساعة الآن الثانية إلا دقيقتين

ثم عاد وقال فى لهجة أقل تذمراً

— هل أجد معك عود ثقاب أيها الشاب ؟

بعد دقيقة واحدة سيسأل الرجل أن يطعمه فان لم يقبل قتله دون تردد ، ولكن لا بأس من إعطائه عوداً من الثقاب قبل ذلك

أخذ يبحث فى جيوبه وهو فى أثناء ذلك يدقق الوضع المناسب لاصابة محدثه فى مصرع ، وفكر في رغبة الرجل الذي سيصبح فى عالم الأموات بعد ثوان فى التدخين فأضحكته المفارقة فأخذ فى القهقهة ثم قدم بعض أعواد الثقاب إلى الفريسة

غير أن مستر إيفانز ما كاد ينظر إلى الأعواد حتى صاح قائلا :

— وماذا أصنع بهذه الأعواد يا ولدي وهى كما ترى من النوع الذي لايشتعل إلا إذا حك فى علبته الخاصة ... أين العلبة إذن ؟

قال هذا القول وقد ثبت فى ذهنه تمام الثبوت أنه إنما يخاطب إنساناً به مس من الجنون

فضحك مريوذر بوك ضحكة هستيرية حادة وأجاب قائلا :

— هذه فكرة علمية عظيمة ... هذا سر صناعى خطير

ثم استأنف الضحك والقهقهة ولم يكن يضحكه إلا ذلك الميت الذى يلح فى طلب التدخين ... !

وفكر المستر إيفانز قليلا ثم قال :

— سر صناعى ... أى سر ياسيدى ؟

فأجابه مريوذر وقد استولت عليه نوبة من نوبات الجنون :

— إنه سر عظيم ... إنها فكرة رائعة يمكن استخدامها فى إيجاد مدمر عظيم يغنينا عن استعمال السفن الحربية والمفرقعات الحالية التى تستعمل فى الحروب وفى المناجم ... و ...

فقاطعه المستر إيفانز قائلاً :

— كل هذا ... ؟ إذن فأنت مخترع

فكذب مريوذر لأول مرة إذ قال :

— نعم ياسيدى ... لقد اخترعت مدمراً أقوى من الديناميت ويمكن استخدامه بغير الحاجة إلى النار خلافا للمعتاد عند استعمال البارود . مدمر لا صوت له ولا يتجمد بعد استعماله ، طريقة واحدة يمكن استخدامه بها وهى تقريبه من مادة كيمائية أخرى كما هى الحال فى أعواد الثقاب التى تشتعل بحكها بعلبتها

— لله درك يافتى .. إن ثروة عظيمة تنتظر اختراعك هذا. أليس فى السوق اختراع يماثله؟

— لا ياسيدى

وفى هذه اللحظة أخذ فى إحكام تصويب مسدسه من وراء الثوب ثم استطرد قائلا :

— ولكنى لا أملك المال الكافى لتحقيق آمالي باخراج اختراعى إلى عالم الوجود

فابتسم الآخر وقال :

— حسن، سأدلك على ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال أيها الشاب النابغة . أظن أنك لا تمانع فى مرافقتى لتناول طعام الغداء معا .. تعال ياعزيزى، سوف تتناول موضوعك بالدرس أثناء تناول الطعام وسنبحثه من كل النواحى ... المال وغير المال ...

وفى هذه اللحظة دوت فى الجو أصوات ساعات بنايات نيويورك العظيمة مؤذنة بحلول الساعة الثانية ...

(السويس) محمد محمود دراز

ذكرى حب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم محمود العشيري

تأخذني رعدة رهيبة ، ويستولي علي أسى عميق كلما رجعت القهقرى عشرة أعوام وأحييت في مخيلتي ذكرى ذلك العهد البائد ، عهد شبابي الزاخر بالشقاء والآلام ، عهد شبابي الذي يطوي بين أيامه أحلى أماني ، ويلف في أكفانه السود المخيفة أول حب دب إلى قلبي ، وسعدت وشقيت به نفسي !

إنني لأود الآن من قرارة نفسي أن أترك ذلك العهد جانباً ، وألا أعيد ذكراه المرة الأليمة إلى ذهني حتى لا تثير أشجان قلبي ... ولكن ... ولكن العجيب أن قلبي هو الذي يدفعني دفعاً للعود إلى هذا العهد بالرغم مما فيه من إيلام له. ولعله يفعل هذا لأنه يريد أن يعيش ثانية في جو تلك الأيام البعيدة وأن يتذوق مرة لذة ذلك الحب الهائل الذي كان يملأه حينذاك ...

وأنا ... ما ذا أفعل لو خالفت رغبة قلبي ... ورغباته لما تزل كل ما أعنى به في حياتي ؟ حسن . سأطيع قلبي — وليست هذه هي المرة الأولى التي أطيعه فيها على شيء لا أحبه — ولأعد إلى ذلك العهد فانه وإن كان لا يحمل لي في ثناياه إلا الشقاء ، فان في استعادة هذا الشقاء لذة عظيمة قد لا يجدها من يستعيد عهداً سعيداً من عهود حياته ... وما أجمل أن يعيش الانسان مرة ثانية مع الماضي وفي جو الذكرى ، ذكرى حبه الأول والأخير ...

* * *

كنت أيامئذ في العشرين من عمري . وكانت دماء الشباب تجري في عروقي فتملأني قوة وفتوة ومرحاً . ولم أكن قد رأيت القاهرة ، فقد عشت تلك المدة من حياتي في إحدى المدن الصغيرة . فلما قيل لي إنني سأسافر إلى القاهرة لأنم علوي رقص قلبي طرباً وغبطة . وسهدت أياماً لعظم فرحي . فلقد كنت أسمع عن جمال القاهرة وعن أخذ أهلها بأساليب الغرب . فكانت أعز أماني أن أراها وأجوس خلال شوارعها الواسعة الطويلة التي كانت تنقص مدينتي الصغيرة

وأتيت القاهرة . ولم أعتم أن صادقت بضعة من شبانها . رحت وإياهم نقشي دور اللهو الحرام ، ونقضي جل لياليا في المواخير بين أحضان الفتيات الأجنبيات اللاتي يبعن أعراضهن لكل طارق ما دام يملك المال الذي يسد به أفواههن الجشعة ...

وصارت حياتي على هذا المنوال بضعة أشهر . ثم ابتدأت أشعر بأن هناك فراغاً عميقاً يضرب أطنابه في حياتي ، ومكاناً كبيراً ظل شاغراً في قلبي . ولم أعرف سر هذا الفراغ ولا ذاك المكان الشاغر في أول الأمر . ولكنني عند ما فكرت فيهما ملياً عرفت أنني في حاجة ماسة إلى حب أملأ به فراغ حياتي وقلبي ، وتسمو به عواطفي التي انحطت ... وتتطهر به نفسي التي دنست ...

وعجلت في البحث عن هذا الحب فقد كنت أحس بالحنين إليه يتضاعف ، بحثت عنه في كل مكان ، في شوارع القاهرة ، وفي منازل أصدقائي وحتى في دور اللهو التي كنت أتردد عليها . ولكن

هباء ذهب بحثي . فما وجدت الفتاة المنشودة . الفتاة الهيفاء القد ، الفاتنة الوجه ، الطاهرة الروح والقلب ، التي رسمت صورتها في خيالي وأحلامي مراراً ...

وبلغ مني اليأس مبلغه في العثور على حبي المرجو ... وظلت حياتي فارغة قاحلة كما هي ، حتى كانت احدى الأمسيات وكنت جالسا في شرفة الطابق المتواضع الذي استأجرته في أحد البيوت لأقضي فيه مدة إقامتي بالقاهرة ، وإذا بغادة ما رأيت وجها أجمل من وجهها ، ولا قداً أرشق من قدها ، تبدو أمامي في شرفة المنزل المواجه للمنزل الذي أقيم فيه كما يبدو الحلم الجميل في خيال النائم . فما استطعت أن أمنع صرخة خافتة كلها دهش وإعجاب

لقد كانت هذه الغادة هي نفس الفتاة التي رسمت صورتها في خيالي .. نفس الفتاة التي ستهبني الحب !

وحسبت نفسي أحلم في أول الأمر .. ولكن هذا الوهم لم يلبث أن تبدد .. ووجدتني بين يدي الحقيقة الحلوة الجميلة ..

ورأتني الفتاة فعادت في دلال من حيث أتت واختفى شبحها عن ناظري ؛ ولكنه ظل عالقا بذهني ...

ولما أفقت من غيبوبتي ولم أجدها أمامي ، عرتني انتفاضة ، وخيل إلي أنني كنت في الجنة وطردت !!

* * *

وطلقت دور اللهو . واندفعت بجميع قلبي إلى هذه الفتاة . فما كنت أغادر شرفتي إلا للحظات قصيرة . ونسيت مدرستي فكنت أذهب إليها يوما وأنقطع أياما .. ومع هذا فانني لم أرفتاتي إلا قليلا .. أربع مرات أو خمسا . وكانت في كل مرة يقع بصرها علي تغادر شرفتها مسرعة ؛ ولعلها كانت تفعل ذلك بدافع الخجل مني ، أو انني لا أعرف تعليلا لذلك غير هذا التعليل ..

بيد أن هذا لم يكن ليغير رأيي فيها . فقد كنت واثقا أنها هي الفتاة التي ستملأ فراغ حياتي وقلبي بالحب .. وقد كان .. ولم يخب ظني عندما ابتسمت لي يوما ..

كان هذا في الصباح على ما أذكر ، وكنت قد بكرت في الجلوس بشرفتي . وفجأة - بعد قليل - أطلت برأسها الجميل من إحدى نوافذ المنزل الذي تقطنه .. وكانت هذه أول مرة أراها فيها تطل من نافذة . فأردت أن أنتهز هذه الفرصة وأعبر لها عما أحس نحوها ولا سيما أني وجدتها في تلك المرة باسمة الثغر ، مشرقة الوجه فلم أخف على نفسي منها ، ولم أجد أفضل من الابتسام لهذا الذي أريد . فابتسمت لها . ابتسمت بسمة سكبت فيها كل قواي . وكانت مفاجأة ملأتني سعادة وغبطة حينما ردت علي بسمتي ببسمة منها . أجل وايم الحق لقد ابتسمت لي ، وابتسمت لي في اشراق وصفاء ومحبة !

لو سئلت يوماً ماهي أسعد أيام حياتي ... لأجبت فوراً أنها هي الأيام التي كانت تبتسم لي فيها تلك الفتاة . وإنني لأطوي الآن مراحل حياتي فلا أجد يوماً ذقت فيه سعادة تدانى هذه السعادة التي كنت أشعر بها تغمرني كلما ابتسمت لي . فلقد كانت بسمتها بمثابة نور يغمر حياتي . ويبدد ظلمات نفسي وكانت بعد هذا تضيء أمامي الطريق إلى حياة جديدة تقوم دعائمها على الحب ... والأحلام ...

وأنا ممن يعشقون تلك الحياة ...

فقد كانت — على الأقل — تبعدنى عن حياتى الحقيقية التى لم تكن تزخر إلا بالهموم . وكان حبى لهذه الفتاة يزداد كل يوم . وأصبح أملى أن أراها دائماً تبتسم .. تبتسم لى . فما كنت أحس بالحياة تترقرق بين جنبى إلا إذا ابتسمت لى . وما كنت أجد لذة للعيش إلا إذا لاقتنى ببسمتها كل صباح ، ولا للنوم إلا إذا ودعتنى ببسمتها كل مساء ...

ومرت الأيام مرّ السحاب وأنا لا أعلم إلى أى مصير تقودنى حياتى هذه . وزارنى يوماً أحد أصدقائى ممن كنت ألهو معهم في الماضى فما إن رآنى حتى صرخ دهشاً وهو يقول :

— قاسم ! يالله ... هل أصدق هذا ... ؟

قلت : ماذا ... ماذا تعنى ؟

قال وهو يحملق فى عينى والدهش لا يزال مرتسماً على وجهه :

— منذ كم رأيت نفسك فى المرآة ...؟

قلت : منذ قليل ...

قال : عجباً ... وهل تعرف أنك قد تغيرت ؟

قلت : كلا ...

قال : إذاً تعال ...

وجذبنى من يدى إلى مرآة كانت بالقرب منا ثم طلب منى أن أنظر إلى نفسى فيها . فلما فعلت قال :

— والآن تأمل فى نفسك جيداً وخبرنى ماذا يبدو عليك : على وجهك وجسدك ...

فهززت رأسي متعجباً فما رأيت جديداً فى وجهى ولا فى جسدى . فعاد صديقى يقول :

— أنظر إلى عينيك جيداً . ألا ترى كيف ذبلتا ... أنظر إلى وجهك ألا ترى كيف شحب . أنظر إلى جسدك ... ألا ترى كيف نحل ؟

ونظرت إلى عيني ، ثم إلى وجهى وجسدى ، وعندئذ أجفلت والدهشة تعقد لسانى . فقد وجدت صديقى على حق فى ملاحظاته . ووجدتنى قد تغيرت حقاً . . . وتغيرت كثيراً . . .

وعجبت كيف لم أفطن إلى هذا من قبل ... وظللت حزيناً للتغير الذى طرأ علىّ أربعة أيام أو خمسة لا أذكر ... ثم عدت أتابع حياتى ... الحياة التى تقوم دعائمها على الحب والأحلام ، وتملأها بهجة وجمالا بسمة فتاة ...

ودرجت الأيام مجدة فى طريقها المجهول الذى لا يعرفه إلا الله .. إلى أن كان يوم من أيام الصيف رهيب الجو حار الهواء راكده . وكنت جالساً كعادتى في الشرفة أنتظر بسمة فتاتى التى احتجبت فى ذلك اليوم فلم تبد لى حينما دخلت على صاحبة المنزل الذى أسكنه — بعد أن استأذنت علىّ — وقدمت لى برقية باسمى وصلت إلى المنزل منذ ثوان . وكان ما فى هذه البرقية مروعاً أليماً .. أليماً جداً .. حتى تمنيت لو مت قبل تلاوتها ..

كانت البرقية من أمى تقول لى فيها إن أبى قد مات فجأة ليلة الأمس « بالسكتة القلبية » وتطلب منى أن أعود إلى مدينتى سريعاً لألتحق بعمل عثرت لى عليه هناك حتى أعول أسرتنا بعد أن مات أبى الذي كان يعولها ...

وأظلمت الدنيا فى عينى .. وأخذنى ذهول عميق

أين أنت الآن يا فتاتي لتبتسمى لى ، ولتبددى ببسمتك بعض ما عرانى من الهم والحزن ؟ ... أين

أنت لتعيدى ببسمتك إلى قلبى بعض الأمن والاستقرار ؟

ولكن أحداً لم يجب ... وسقطت على راحتى بضع قطرات من العرق كانت عالقة بجبينى !

* * *

وكان يوماً مشهوداً من أيام حياتى هو ذلك اليوم الذى حزمت فيه أمتعتى لأبارح القاهرة ...

أقسم أننى ذرفت كثيراً من الدموع فى ذلك اليوم ... ولعمرى ما ذرفت هذه الدموع حزناً على والدى الذى مات ، كلا بل حزناً على فتاتي التى سأخلفها بعد قليل ... وعلى بسمتها التى كانت تملأ حياتى بهجة وجمالا .. ثم .. ثم على حبى وسعادتى وكل منهما سيذوى !

وخلفت المنزل وفى قلبى لوعة وأسى . وما كدت أقف على أرض الشارع وأرفع رأسى إلى النافذة التى اعتاد وجه حبيبتى أن يطالعنى منها كل يوم حتى وجدتها تطل منها وعلى فمها نفس البسمة الساحرة التى كنت أحس وأنا أتلقاها منها بالحياة تترقرق بين جنبى ، وفى يدها زهرة صغيرة كانت تداعب بها حافة النافذة فى هدوء ...

طار عقلى من رأسى فى تلك اللحظة . ولم أعد أسيطر على قواى . وتعالى صوتي مدوياً حزيناً وأنا أقول لها بجرأة عجبت — فيما بعد — كيف توفرت لى:

— لاتبتسمى يافتاتى ، فانى مسافر إلى مدينتى ؛ مسافر الآن ولن أعود ...

ونظرت إليها فإذا بها تنظر إلى فى دهش وذهول ، وإذا ببسمتها قد تلاشت ، وكأنما محتها تلك الدموع التى رأيتها تنحدر من عينيها على شفتيها ووجدت يدها تضغط على الزهرة فى قوة فتناثرت بضع ورقات منها على الأرض التقطتها فى الحال ووضعتها بين صفحات كتاب كان فى يدى

وعند ما تحولت لأسير سقطت على يدى من عل قطرة من دموعها ... من دموع تلك الفتاة التى أحببتها ، والتى خلق منى حبها إنساناً جديداً يختلف عما كنت فى الماضى كثيراً . فلم أستطع أن أمنع نفسى أنا أيضاً من البكاء ، وكان بكائى مراً مكتوماً

* * *

أنا خجول .. خجول جدا . واعترف بأن خجلى كان هو السبب فى أننى لم أعرف إلا الآن .. إلا متأخرا ... أن تلك الفتاة التى أحببتها تحبنى أيضا . فكثيرا ما فكرت فى أن أسألها من شرفة الطابق الذى كنت أنزل فيه : هل هى تحبنى أولا . ولكنى كنت أخجل فأظل جامدا مكتفيا بالبسمات التى أتلقاها منها فى كل يوم ..

كان حبى عجيبا ، ولا أدرى كيف استطاع أن يعيش إلى تلك اللحظة وإلى ما بعدها وهو قانع بتلك البسمات ..

آه لو كانت هذه الجرأة التى استطعت بها أن أخاطب حبيبتى ، ومن شارع قد يمر فيه عابر فيسمع كلامى قبل الآن ؛ إذاً لاستطعت أن أجنى ثمار حبى ، ولكن الخجل . . . أضاع منى الفرص السوانح وأضاع معها سعادتي !

* * *

لا أعرف كيف استطعت أن أعيش فى مدينتى بعد أن عدت إليها ، ولكن الشىء الذى لن أنساه هو أننى كنت أحيا فيها كالغريب عن هذا العالم . كنت أحيا فيها كطائر شارد تائه فى بلد لا يعرفه ولا يعرف أحدا فيه . وكانت حياتى تسير على وتيرة

واحدة وأسلوب واحد : من بيتي إلى مقر عملي ، ومن مقر عملي إلى بيتي ، لم يجد فيها يوما جديد

وانكببت على عملي أحاول أن أفني فيه نفسي لأنسى ، ولكن الذكريات كانت تلح عليّ دائماً فلا أستطيع أن أطردها عني إلا بعد أن تجول الدموع في عيني .

ولطالما تراءت لي بسمتها من وراء تلك الدموع فملأت قلبي حسرة وألما ، لأنها كانت تبدو لي في كل مرة حزينة شاحبة تمحوها شيئا فشيئا عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما .. دموع !

ووجدتني يوما أدخر بعض الجنيهات التي أتناولها في كل شهر من عملي . وكنت أسأل نفسي كثيرا لم أدخر هذه الجنيهات وأنا في أشد الحاجة إليها. فما كنت أجد ردا شافيا . . إنني أدخرها وكفى . .

وما إن مضت ثلاثة أعوام حتى كنت قد ادخرت مبلغاً من المال لا هو بالكبير ولا بالضئيل وبعد أيام من مرور هذه الأعوام الثلاثة كنت في طريقي إلى القاهرة ... لم ؟ لأخطب فتاتي إلى أهلها بعد أن حاولت في تلك الأعوام الثلاثة التي مرت أن أسلوها فلم أستطع !

وهبطت إلى أرض القاهرة مهد حبي ومسرحه، وما إن قاربت الحي الذي كنت أقيم فيه حتى هاجتني ألوف الذكريات ... وجدت الحي كما هو ... كما تركته منذ ثلاثة أعوام وبضعة أيام . ودنوت شيئاً فشيئا من دار الفتاة التي أحببتها في كل هذا الوجود وطغت عليّ سعادة غريبة لا عهد لي بها ، واشتد وجيب قلبي وازدادت دقاته . . ووجدت «بواب» الدار في (كشكه) الصغير كما تعودت أن أراه في الماضي . ولم يكن قد طرأ عليه تغير ما ، إلا تلك الشعرات البيضاء التي عمت رأسه ولحيته وشاربه . وملت عليه أسأله قبل أن أخطو إلى داخل الدار :

— هل سيدتك الصغيرة هنا ؟

فلم يبد عليه أنه فهم سؤالي . فشرحته له . وعندئذ بدا على وجهه أنه فهم ما أرمي إليه . فغمغم قائلا في صوت أبح ظهر فيه شيء من الاضطراب :

— أتعني ... المرحومة « اعتماد » ؟

كانت كلمته صدمة قوية كادت أن تذهب بعقلي؛ فاعتماد هذه هي حبيبتي بعينها ، فقد سمعت أمها يوما تناديها بهذا الاسم . جمت أطراف شجاعتي وصرخت فيه بصوت لا أدري كيف خرج من حلقومي :

— وهل ماتت ؟

— من عام ...

— كيف ؟

— مرضت . . . ولكن أحداً لم يعرف سر مرضها . وكل ما نعرفه أنها كانت تهذي كثيراً في أيامها الأخيرة . وقد سمعتها أنا بنفسي وهي تهذي قائلة : « لقد كنت أحبه ... وقد مضى ... سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده » وكثيراً ما حاول أهلها أن يعرفوا هذا الذي كانت تحبه . ولكنهم أخفقوا ... وماتت سيدتي اعتماد وسرها في صدرها

وأحنى الرجل رأسه على صدره في حزن وقال :

— رحمها الله ...

وفهمت كل شيء ... فتوليت من أمامه في

خطوات ذاهلة وأنا أتمتم فى ذهول وقد اعترانى شبه خبال :

— أجل ، رحمها الله ...

وسرت كثيراً لغير وجهة فى ذلك اليوم ... وأخيراً عند ما أفقت من ذهولى بعض الشىء — وجدتنى فى القطار المسافر إلى مدينتى

وكان أول ما فعلت عندما عدت إلى منزلي فى المدينة أن تناولت الكتاب الذى كنت أضع بين صفحاته الورقات التى تناثرت من تلك الزهرة التى كانت فى يد « اعتماد » يوم أن بارحت القاهرة عقب وفاة أبى ... وأخذت واحدة منها وضعتها على كفى وكانت قد جفت ... تماماً كما جفت حياتى فى ذلك اليوم الذى عرفت فيه أن فتاتى قد ماتت . وخيل لى وأنا أنظر إليها أن وجه « اعتماد » قد رسم عليها .. ورأيت فمها وعليه تلك البسمة التى ربطتنى بالحياة مدة طويلة . ولكنها كانت تبدو لى شاحبة حزينة تمحوها شيئاً فشيئاً عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما — دموع !

وغابت البسمة وغاب الوجه .. وخيل لى أننى أسمع هاتفاً يهتف فى صوت كئيب خافت ، ولكنه هادئ رهيب :

— « لقد كنت أحبه وقد مضى .. سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده ! .. »

وأعدت ورقة الزهرة إلى مكانها بين صفحات الكتاب ... ودمعت عيناى !

عبد الحليم محمود العشيرى

الملابس القطنية الخفيفة
هى
ملابس الصيف القائظ
تشكيلات جميلة رائعة . ومنسوجات مختلفة مغرية
وألوان ساحرة أخاذة
تقدمها اليكم
شركة مصر للغزل والنسج
إحدى مؤسسات بنك مصر

ابن تاراس بولبا

للكاتب الروسي غوغول

بقلم الأديب ابراهيم زين الدين

« حاصر (الزابورجيون) دوبنو إحدي المدن البولونية يريدون الاستيلاء على أموال أهلها ومواشيهم، وقد سمعوا أن فيها مؤناً كثيرة . وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وأكلوا الأخضر ، وأحرقوا اليابس ، وأهلكوا الزرع والضرع ... ثم يتركونها قاعاً صفصفاً ... »

كانت المدينة كأنها غارقة في سبات عميق، وكانت سقوفها وجدرانها القوية وحصونها الحصينة تلمع على أنوار النيران البعيدة

اخذ أندريه يتمشي بين صفوف الفوزاق بينما أخذت النيران التي حف من حولها الحرس النائمون تخمد من وقت لآخر . نام الحرس بعد أن ملأوا أجوافهم من طعام المساء بشهيتهم « الفوزاقية » واطمأن أندريه إذ قال لنفسه : « من حسن حظنا أننا لسنا تجاه عدو يخشى جانبه ، وأن ليس هناك أحد نخافه [1] »

أخيراً اقترب من عربة تسلقها واستلقى على ظهره ، وجمع يديه تحت رأسه، ولكنه لم ينم؛ وتطلع إلى السماء الممتدة فوقه فرأى النجوم الكثيرة ، وأحس بالهواء الندى يداعب شعره؛ وكانت النجوم في وسط السماء تغمرها بالنور وبالسحر ...

نسي أندريه نفسه بين هذه الأشياء ، وفجأة غطى السماء سحاب حجبها عن عينيه ثم انقشعت الغيوم وبانت السماء أجمل مما كانت

شبه له في ذلك الوقت أن مخلوقاً حياً غريباً ظهر لعينيه ، فظن لأول وهلة أن هذا المشهد هو من تأثير غفلته الأولى ، ففتح عينيه وحدق في السماء ، فرأى حقيقة وجهاً يقترب منه وينظر في عينيه ، ورأى شعراً أشعث نافراً من غطاء الرأس :

نظرات غريبة ووجه أسمر شاحب جعلاه يعتقد أنه فريسة كابوس وأوهام ، فتناول بندقيته بحركة آلية وقال باضطراب : « من أنت ؟ إذا كنت من الأرواح الشريرة فابتعد عني ؛ وإذا كنت رجلا فانك قد اخترت وقتاً غير لائق للمزاح : إذهب وإلا قتلتك من أول ضربة ! »

فما كان جواب الشبح إلا أن وضع أصبعه على فمه طالباً السكوت والهدوء ... ألقى أندريه سلاحه ونظر باتباه إلى الشعر الأسود الطويل ، إلى العنق والصدر العاريين. فاذا بالشبح امرأة. ولكنها ليست من بنات جنسه : وجهها أسمر وعليه آثار المرض، وجنتاها بارزتان وعيناها غائرتان . وكلما أطال النظر إليها وجد فيها شيئاً له به عهد . وأخيراً لم يسعه إلا سؤالها : « قولي من أنت ؟ يظهر لي أني أعرفك ، أو شاهدتك في مكان ما ! »

— قالت: كان ذلك منذ سنتين في « كييف! »

ردد بعدها أندريه « منذ سنتين في كييف؟ ... مجهداً نفسه في استرجاع ما يمكن أن تعيه ذاكرته

(*) من قصة للكاتب الروسي غوغول عنوانها « تاراس بولبا »

(١) فوزاق تعلم أو عاش في « زابورجيه » في المدرسة الحربية

من ذكريات « كياف » ... من دخوله إلى المدرسة وما مرّ عليه ... ثم نظر إليها وصاح فجأة « أنت التترية خادم النبيلة الصغيرة ابنة الحاكم ! »

— فدمدمت التترية قائلة: صه ! وهي تمد يديها برجاء وابتهال وخوف ... ثم رفعت رأسها لترى إذا كان أحد أفاق على صوت أندريه ...

— قولى تكلمي ... لم وكيف أنت هنا ؟ أين السيدة الصغيرة ؟ ألم تزل حية ؟ تكلمي ، أسرعى . قال ذلك بصوت مخنوق من تأثير الشعور الداخلى الذى كان يخالجه

— هى في المدينة !

— فى المدينة ؟ وأحس أندريه بأن دمه تجمع فى قلبه ... ولم كانت فى المدينة ؟

— ذلك لأن والدها هناك ، وهو لم يزل فيها منذ سنة ونصف

— وبعدئذ ... هل تزوجت ؟ ولكن تكلمى كم أنت غريبة الأطوار ... ماذا تعمل الآن ؟

— إنها لم تذق طعاماً منذ يومين ...

— ماذا تقولين ؟

— لم يبق شيء عند أحد من سكان المدينة .. حتى ولا كسرة خبز . منذ زمن طويل والناس لا يجدون ما يأكلونه غير التراب

بقى أندريه صامتاً لا يبدى حركة ... إلى أن قالت التترية : « عرفتك السيدة الصغيرة من بين جميع الزابورجيين من أعلى القلعة وقالت لى : إذهبي وقولى لهذا الفوزاق النبيل أن يأتى لأراه... وإذا لم يعد يذكرنى ، فاطلبي منه كسرة خبز لأجل والدتى المسكينة ، لأنى لا أريد أن أرى أمى تموت بين يدى وأحب أن أموت قبلها . . . تضرعى إليه : وار كعى عند قدميه ، وقولى له إن له أما أيضاً . فاذا ما تذكرها أعطاك ! »

واستيقظت مشاعر الشاب واستولت عليه بقوة :

— ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ كيف ... وأى طريق سلكت ؟

— اجتزت طريقاً سريًّا تحت الأرض !

— وهل يوجد نفق سرى تحت الأرض ... ؟ وأين ... ؟

— إنك لا تخون أبداً !

— أقسم لك بالصليب المقدس ... !

— هناك تنزل طريقاً منخفضاً وتمر بمجرى الماء عند آخر الدغل

— وبعد ذلك نصل إلى المدينة ؟

— نصل إلى جانب المعبد

— هلمى نذهب حالاً

— ولكن ... قطعة الخبز

— حسن ؛ إجلسى هنا ؛ إبقى فى العربة ... أو اضطجعى بداخلها فلا يراك أحد . الكل نيام . سوف أرجع حالاً ...

واقترب من العربة حيث تراكمت المؤن بعضها فوق بعض وهى مؤن فرقته

خفق قلبه ، وعاوده ما حرص على الابتعاد منه طيلة تلك الأيام بنومه فى الصحارى فى الأيام الأخيرة ، واقترب من حياة الحرب العابسة المقطبة ... عاودته ذكرى امرأة من منزل رفيع ظهرت له كما تظهر من قاع بحر مظلم ... ولمعت فى مخيلته يداها الطاهرتان وعيناها البراقتان وفمها الباسم الضاحك ، وشعرها الجعد بلونه البندق الجميل المسدل فوق كتفيها وعلى نديها ...

وبعثت فى مخيلته كل تقاطيع وجهها بانسجام جميل ...

كلا لم تنطفئ هذه الآثار ولم تمح من مخيلته ، لكنها ظلت جلية فى قلبه تملو عليها الحياة الصخبة التى سعى إليها ، ولكن كثيراً مافكر فيها، وكثيراً ما كان يضطرب من تأثيرها فى غفواته ... وكثيراً ما بقى مستلقياً بعد استيقاظه ، لايعرف السبيل إلى إيضاح عواطفه وإبانتها

تابع سيره ودقات قلبه تقوى وتتسارع لذكره أنه سوف يلقاها ، واضطربت ركبتاه ... ولما وصل إلى العربات نسى كل ما جاء من أجله . نسى مايجب أن يفعل . . حمل يده إلى رأسه مجتهداً فى تذكر ما يجب عليه عمله ...

أخيراً اختلج وأخذته رعشة خوف ، وفجأة جاءته الفكرة ... إنها سوف تموت جوعاً ...

ألقى بنفسه على العربة وأخذ عدة أرغفة من الخبز الأسود وضمها تحت إبطه ... ولكنه فكر: هل يكون هذا الخبز — وهو كاف (الزابورجى) قوى — جشبا متنافياً مع مزاجها وطبيعتها اللطيفة ؟

تذكر عندئذ أن الفائد عنّف الطاهي ليلة أمس لأنه خبز دفعة واحدة مقادير كبيرة من الطحين، إذاً لبقى ما يكفى ثلاث مرات ...

فتأكد من أنه سوف يجد ما يلزمه . أمسك بقدر والده الصغير واتجه نحو طاهى الفرقة الذى كان نائماً بالقرب من قدرين عظيمين يسع كل منهما عشرات الأرطال ، ولم يزل الرماد تحتهما ساخناً

ألقى نظرة على القدرين فعلم أنهما فارغان ، نظر إلى قدور الفرقة الباقية ... لا شىء فيها أيضاً ...

فذكر بالرغم منه مثلاً سائراً : « الزابورجيون كالأطفال ، إذا وجدوا شيئاً قليلاً أكلوه ، وإذا وجدوا منه شيئاً كثيراً لم يبقوا على شىء ! »

ما العمل ... ؟ تذكر أن فى عربة والده كيساً من الطحين الأبيض وجدوه عند ما سلبوا أحد الأديرة... اقترب من عربة والده ، ولكن الكيس لم يكن فيها . لقد وضعه أخوه أوستاف تحت رأسه ومدد باقى رأسه على الأرض ... وملأ السهل من شخيره ...

أمسك أندريه الكيس بيده وسحبه بقوة جعلت رأس أوستاف يرتطم بالأرض ويفتح عينيه بألم من أثر الضربة التى أصابته فأخذ يصيح بكل قوته : « أمسكوا هذا المفريت البولونى . اقبضوا عليه ، أمسكوه ، أوقفوا الحصان! » فصرخ أندريه مأخوذاً بالرعب والخوف : « أسكت وإلا قتلتك ! »

ولم يكن أندريه بحاجة إلى مثل هذا التحذير لأنه سكت من نفسه وعاد إلى مكانه من الأرض ، وعاوده شخيره يملأ السهل ويهز الأعشاب التى نام عليها

أجال أندريه نظره فى كل الجهات خوفاً من أن يكون صوت أوستاف قد أيقظ أحداً من القوزاق

لم ينهض غير رأس واحد من الفرق المجاورة ، فألقى نظرة واحدة على الجموع النائمة ثم ترك نفسه الى الأرض

انتظر أندريه دقائق قليلة دون حراك ثم حمل مامعه

لم تزل التترية مستلقية فى العربة تتنفس بصعوبة . ولما اقترب منها أندريه قال لها : « انهضى ، الكل نيام ... لا تخافى ... ولكن لا يمكنك أن تحملى شيئاً مما أحمل ، وليس فى إمكانى أن أحملها كلها .

قال ذلك ثم حمل على ظهره كيسه ومرّ بالقرب من عربة عليها كيس من الذرة حمله أيضاً ووضع تحت إبطه الخبز الذى أراد أن تحملة التترية . وسار بين صفوف القوزاق منحنى الظهر خائفاً بين حين وآخر أن يستيقظ أحد

— أندرية ! قال الأب بولبا فى الوقت الذى مرّ فيه ابنه بجانبه . فتوقف أندرية عن المسير وخفق قلبه وأخذ يرجف ثم أجاب بصوت منخفض : « ماذا ؟ »

فقال له أبوه : ممك امرأة ؟ قسماً سوف أضربك عند ما أنهض ، إن النساء لايجلبن لك شيئاً من الخير ، قال ذلك واتكأ على مرفقه محدقاً فى وجه الذرة بغطائها

بقى أندرية واقفاً نصف ميت لا يملك القوة على النظر إلى والده . ولما رفع نظره إليه وجده قد نام ورأسه بين يديه

رسم إشارة الصليب وسرعان ما زال عنه الخوف ولما التفت ليبحث عن التترية وجدها واقفة بالقرب منه كتمثال حجرى مظلم ، ملتفة بردائها ، وشماع نار بعيدة تنير عينيها ، فوجدهما كعينين قاسيتين أو كعينى ميت . أمسك بطرف ثوبها وسارا ... وكل منهما يلقى نظرة بعد نظرة وراءه حتى وصلا إلى أرض فيها منحدر كأنه حفرة ، يجرى فى أسفله جدول ماء صغير ، وعلى جانبيه الحجارة والحصى ...

بلغا المنحدر واختفيا عن الأنظار . ولما نظر أندرية إلى ما حوله وجد جداراً يعلو قامة الرجل نبتت فى أعلاه بعض الحشائش البرية ... وفوقهما يلمع القمر كأنه سجن ذهبى ... وهب عليهما هواء خفيف من السهول المشوشبة أعلمهما أن لم يبق وقت طويل على انبلاج الفجر ، لكن لم يطرق سمعهما صياح ديك فى جهة من الجهات ؛ لا فى المدينة ولا فى الجهات المجاورة التى صارت كالصحراء ... لأنه لم يبق ديك واحد منذ زمن بعيد

اجتازا جدول الماء على جزع شجرة ثم وصلا إلى الضفة الثانية ، فوجداها أعلى من التى تركاها كأنها سهل منحدر من طرف جبل ...

هذه الجهة من المدينة آمنة ويمكنها المقاومة ، ولو خرج رجال الحرس لما رؤى واحد منهم ... وكذلك يتعالى سور الدير من الجهة الثانية ويحميها

كانت الضفة الثانية مملوءة بالحشائش البرية ، كثيرة الوعورة يفصلها عن الماء قصب كثير يقارب علوه طول الرجل ، وعند مشرف الوعورة بقايا سياج حدد فيما مضى البساتين والغيط ، ومن أمامهما تمالت أوراق القرطب[1] الكبيرة ووراء السياج نبت العوسج البرى الشائك ... وكذلك نبت العباد[2] فى البقية الباقية من الأرض

عند هذا المكان نزعت التترية حذاءها المرتفع الكعب وسارت عارية القدمين ، رافعة ثوبها في حذر وتحفظ لأن المكان موحل ومليء بالماء ... وتوقفا عندما ولجا طريقاً بين القصب المرتفع ووجدا فتحة لا تزيد على فتحة الفرن

أحنت التترية رأسها وسارت ، وتبعها أندريه محنى الظهر ما أمكنه ليقدر على المرور بحمله . وسرعان ما دخلا فى ظلام دامس

* * *

استطاع أندريه التقدم بصعوبة فى هذا الممر

(١) Bardane — نوع من النبات
(٢) Tournsol — عباد الشمس

المظلم وراء التترية جاراً وراءه أكياس الخبز قليلاً ووصل إلى النور ؛ قالت التترية : نحن نقترب من المكان الذى وضعت فيه المشعل

وكذلك كان . بدأت جدران الأرض المظلمة تضاء بنور شاحب ، ثم وصلا إلى ممر يظهر لأول وهلة كأنه معبد ، فيه طاولة صغيرة مسندة إلى الحائط على هيئة المذبح ، وفوقها صورة العذراء والقديسين ، تكاد لا تظهر من شدة كمود لونها . وعلق بالقرب من هذه الأشياء قنديل فضى اللون يضىء هذه الأشياء

انتحت التترية ورفعت بيدها القنديل الذى تركته من قبل ؛ ثم حركت النار بملقط بجانب القنديل زاد الشعاع وقوى ، ثم سارت ورفيقها ، يحفهما تارة نور قوى ، وتارة يكنفهما ظلام دامس. وظهر التباين الفادح بين وجه الشاب الممتلئ صحة ونشاطاً وبين وجه التترية الأصفر الشاحب ...

أصبح الممر أعرض من ذى قبل، وتمكن أندريه من الوقوف على طول قامته ، ولاحظ وهو يسير جدران النفق التى ذكرته بممرات « كياف » الأرضية فان الشبه بينهما قريب جداً . ترى الحفرات فى الجدران والأرض ، والقبور منتشرة فى كل مكان ؛ وترى أيضاً فى بعض الأمكنة بقايا بشرية تأثرت بالرطوبة وصارت رفاتاً

يظهر أن فى هذا المكان رجالا قديسين هربوا من صخب العالم وحسراته وضلاله ...

كانت الرطوبة قد تمكنت من بعض الأمكنة ، وانتشرت بقع الماء تحت أقدامهما

وقد اضطر أندريه مراراً إلى التوقف عن المسير ليترك لرفيقته الوقت اللازم لترتاح من آلامها التى سببتها لها قطعة صغيرة من الخبز ابتلعتها

قالت بصوت منخفض وهى لا تبدي حراكا: « شكراً لله ، هاقد وصلنا ! »

واقتربا من باب حديدى كبير رفعت يدها لتطرقه فلم تسعفها قواها ، فطرق أندريه الباب مكانها مرات انتشر بعدها صدى الصوت ، مما دل على طول المسافة وراء الباب؛ ثم تغير الصوت عندما اصطدم بحاجز ، وبعد دقيقتين سمع وقع أقدام وحركة المفاتيح في الباب ثم خرج عليهما راهب بيده شمعة وظل واقفاً على المدرج

توقف أندريه بالرغم منه عند رؤيته راهباً كاثوليكياً يبذر النفور بين القوزاك ... الذين يعاملونه معاملة أقل إنسانية من معاملتهم اليهود

وتوقف الراهب أيضاً ورجع إلى الوراء عند رؤيته (قوزاقي زابورجى) ... لكن كلمة غير واضحة فاهت بها التترية طمأنته فأضاء لها الطريق وأوصلهما بعد أن أوصد الباب إلى أعلى المدرج حيث وجدا نفسيهما بين أروقة الكنيسة المظلمة

وقف بالقرب من المذبح حيث علقت الشمعدانات الكبيرة وأضيئت بالشموع ، ثم جثا على ركبتيه وأخذ يصلى بخشوع . وبجانبه جثا شابان يرتلان الألحان ، وعليهما ثياب خضر فوقها قمصان بيضاء مزركشة الجوانب والأطراف ، وبيد كل منهما مبخر ... يصلون بخشوع للمعجزات والخوارق الالهية ، يصلون لأجل تخليص المدينة واسترجاع شجاعتهم ، يصلون لله ليهبهم الصبر ويبعد عنهم الأرواح الشريرة التي توسوس لهم بالشكوى وتحثهم

عليها بالدموع فى أعينهم ، وتسلبهم شجاعتهم أيام المصائب الأرضية

بعض نساء كالأشباح ركمن مستندات إلى الكراسى ووضعن رؤوسهن بجانب القاعد الخشبية السود .

وبعض رجال اتكئوا على الأعمدة القائمة فى وسط القاعة وركعوا بحزن وأدوا صلاتهم بخشوع

أصاب شعاع الصباح الضئيل النافذة ذات الزجاج الملون ، فأرسلت أنواراً على شكل مربعاتها زرقاء وصفراء ، وغيرها من الألوان . فأنيرت الكنيسة فجأة ، وظهر المذبح بالرغم من شدة سواده محاطاً بالأنوار الساطعة ... وشاهد أندريه بدهش من ركنه عظمة النور ... »

تعالى صوت الأرغن فى ذلك الوقت وملأ الكنيسة الفسيحة ، وأخذ يقوي من وقت لآخر ويتعالى كثيراً ويتحول إلى قصف رعد عظيم ، ومنها يتحول إلى لحن موسيقى ناعم يتعالى من وقت لآخر تحت الأروقة ثم يتغير من حال إلى حال حتى يصبح حاداً يذكر بأصوات الفتيات الصغيرات ... ثم يعود إلى القصف والرعد ... ثم يسكت

وبعد ذلك ارتفع الصوت من جديد وانتشر بين الأروقة والأعمدة ، وأندريه فمه نصف مفتوح يصغى إلى هذه الموسيقى العذبة

أحس عندئذ أن أحداً يمسك بطرف ثوبه : « لقد حان الوقت » قالت التترية ذلك واجتازا الكنيسة من غير أن يلحظهما أحد وأطلا على ساحة بالقرب منهما

منذ زمن طويل والفجر يضيء السماء بلونه الأحمر ، وكل شيء يعلن ظهور الشمس . كانت الساحة المربعة الشكل خالية تماماً ولم يزل فى وسطها بعض مناضد سود دلت على أنه كان هنالك منذ أسبوع تقريباً أسواق البلد ، والطريق التى لم تنظف منذ ذلك الحين كانت مملوءة بالأوحال الجافة

كانت الساحة محاطة من كل جوانبها بمنازل صغيرة مبنية بالحجارة أو الآجر مؤلفة ، من طابق واحد وحولها الأعمدة الخشبية المرتفعة ، وكلها من صنع أصحابها وسكانها وهى شبيهة بمنازل ليتوانيا وبولونيا . كانت كلها مغطاة بسقوف على غير انتظام وفى بعض جدرانها نوافذ صغيرة لانارتها

وعلى أحد الجوانب ظهر منزل على غير طراز المنازل فى المدينة ، عرف فيه (فندق المدينة) أو غيره من دور الحكومة . كانت تلك البناية مؤلفة من طبقتين ، وفي أعلاها جناح خصص للحراسة ، وعلقت ساعة كبيرة فى الحائط

ظهرت الساحة كأنها ميتة

لكن أندريه سمع أنيناً ضعيفاً منبعثاً من الجهة الثانية ...

حدق فى المكان فرأى جماعة من ثلاثة رجال مستلقين على الأرض بلا حراك تقريباً ، وحدق النظر فيهم أكثر ليتبينهم إذا كانوا أمواتاً أو أحياء

وبينما هو سائر اصطدمت قدماه بجسم ممتد على الأرض : كان ذلك جسم امرأة يهودية على ما يظهر — ما تزال شابة بالرغم من آثار الضعف والهزال البادية على وجهها مما يمنع تقدير سنها . وضعت تلك المرأة على رأسها غطاء من الحرير الأحمر وزينت قبعتها بجواهر — ربما كانت زائفة — وأسدلت بعض شعرها الجعد على عنقها الجاف المنتفخ الأوداج

وانطرح بالقرب منها طفلها ممسكا ثديها بشدة قارصاً إياه بين أصابعه بحركة غير إرادية ... ولا يجد فيها لبناً ... لكنه لم يبك ولم يصرخ ... ولا يمكن الحكم على حياته إلا بحركات بطنه الذى ينتفخ ويهبط ببطء لافظاً من بين شفتيه أنفاسه الأخيرة

تابعا سيرهما فى الشارع ؛ لكنهما توقفا فجأة أمام رجل هائج تقدم منهما عند رؤيته حمل أندريه الثمين ، وارتمى عليه كالنمر الهائج وأمسك بتلابيبه وصاح : « خبز ! » ولم تباعده قواه أكثر من ذلك فأبعده أندريه عنه فوقع على الأرض ، وأخذته الشفقة عليه فألقى إليه بلقمة خبز ارتمى عليها الرجل كالكلب الهائج وعضها بين أسنانه وابتلعها وهو يرسل معها أنفاسه الأخيرة ... بين هياجه وتشنج أعصابه من تأثيرها

خرج الناس من منازلهم ظانين أنهم بعملهم هذا ربما تنزل عليهم معونة من السماء ترد إليهم قواهم

وأمام منزل جلست عجوز القرفصاء ورأسها بين يديها فلا يمكن معرفة ما بها . هل هى نائمة أو مغمى عليها أو هى جالسة بلا حراك إلى الأبد ..

وظهر من سقف أحد المنازل حبل مربوط فى أسفله جسم رجل مدلى لم يتمكن ذلك المسكين أن يصبر أكثر مما صبر على هذه الآلام ، فعجل لنفسه الموت بانتحاره ...

لم يتمالك أندريه نفسه عند رؤيته هذه الأشياء فسأل رفيقته : « هل حقيقة لم يجد هؤلاء الناس ما يمسكون به حياتهم ؟ عند مايصل الرجل إلى حالة لا يمكن معها أن يعمل شيئاً ، ولا يجد ما يأكله بأية طريقة كانت ، يمكنه أن يتغذى بكل شيء ، يمكنه أن يأكل الحيوانات المحرمة عنه . كل شيء يصبح صالحاً لطعامه ! »

— لقد أكلوا كل شيء ! أكلوا القطمان والحيوانات بأجمعها ، وإنك لا تجد فى المدينة لاحصاناً ولا كلباً ولا هراً حتى ولا فأراً

— ولكن كيف يمكنكم وأنتم لا تجدون ما تأكلون أن تدافعوا عن المدينة إلى اليوم ؟

— نعم ! من الممكن أن يسلم الحاكم المدينة ، ولكن القائد الذى في « بوزداك » أرسل البنا رسالة مع الحمام يأمرنا ألا نسلم المدينة ، وأنه عارج نحونا مع جيش لينقذنا ، ولكنه ينتظر لذلك قائداً آخر ليتمكنا من الحضور فى وقت واحد ... ونحن فى انتظارهما من وقت لآخر ... ولكن ها نحن قد وصلنا إلى البيت ...

رأى أندريه المنزل من بعيد ليس هو فاذا كغيره من منازل المدينة ، يظن أن مهندساً إيطالياً شيده على طابقين بقرميد دقيق جميل. نوافذ الأول متوجة بشكل جميل مرتفع ؛ والثانى مؤلف من أروقة وغرف كبيرة ، وتظهر من بين الأعمدة أسلحة الفرنجة المعلقة على الجدران

يصل سلم القصر العريض إلى الساحة ، وعند أسفله وقف الحرس حاملين سلاحهم الأبيض بيد ، وممسكين بيدهم الأخرى رؤوسهم المنحنية على صدورهم ، وهم فى موقفهم هذا أشبه التماثيل منهم إلى الناس

إنهم لم يناموا ولم يغفلوا أبداً ، ولكنهم لا يشعرون بما حولهم حتى لم يروا اللذين مرا أمامهم

وعند أعلى السلم وقف جندى بثيابه الثقيلة

الغالية حاملا فى يده كتاب الصلاة . وعندما مرّ أندريه بالقرب منه رفع إليه نظرات دهشة ، لكن التترية قالت له كلمة رجع بعدها نظره إلى كتاب صلاته ...

دخلا أولا غرفة فاذا هى متسعة الأركان متباعدة الجوانب كأنها قاعة استقبال ، مليئة بالجند المستدين إلى الجدران على أوضاع مختلفة ، والخدم والحرس والسعاة وغيرهم من رجال الخدمة اللازمين لشرف رجل بولونى عظيم ، أكان رجل حرب أم مطلق سيد كبير ؟

فى وسط القاعة شمعة على وشك الانطفاء ، واثنتان تضيئان فى شمعدانهما الكبير بالرغم من أشعة الصباح التى دخلت من النافذة الكبيرة

ترك أندريه هذه الغرفة واتجه نحو باب حديدى مزدان بأنواع الأبسطة فأمسكته التترية من يده وأشارت بيدها إلى باب صغير فى آخر الجدار

اجتاز هذا الباب إلى ممر ضيق ثم إلى غرفة أخذ يتفحصها بدقة . وكانت الأنوار التى تدخل من فتحاتها تنتقل من أثاث إلى آخر وتقع على قطعة هندسية أو لوحة فنية أو ستار أحمر

هنا قالت له التترية أن ينتظر ، وفتحت باباً يطل على غرفة ثانية كانت مضاءة بنور الموقد ... سمع دمدمة ثم صوتاً خافتاً جمله يرتجف ... ورأى من خلال الباب خيال فتاة يمر بسرعة ، رافعة بيدها شعرها الطويل

خرجت التترية ثانية وسمحت له بالدخول ، ولم يذكر أندريه كيف دخل ولا كيف أغلق الباب وراءه ولا كيف وجد نفسه وسط الغرفة

وجد غرفة منارة بشمعتين بالقرب من صورة العذراء فوق طاولة صغيرة على حسب عادة الكاثوليك ، وعند أسفل الطاولة وضع كرسى صغير للركوع عليه وقت الصلاة

وجد نفسه فى الغرفة ، ولكن ليس هذا ما يبحث عنه

أدار وجهه إلى الجهة الثانية ، فرأى امرأة كأنها مثلجة ومتصلبة بوضع غريب ، وظهرت كأنها تهم الوقوع عليه ، ثم توقفت فجأة وهو أيضاً بقى واقفاً مشدوهاً ...

لم يتخيل أنه سيلقاها على هذا الشكل . ليست هى ليست التى عرفها ورآها من قبل ، ليس فيها شىء يشبهها ... تلك كانت عذبة وجميلة أكثر من هذه ، وكان لها مزايا لا نهاية لذكرها ووصفها . أما هذه فهى جميلة ، ولكنها تشبه لوحة انتهى الرسام من آخر ريشة فيها

كانت فتاته القديمة مرحة شهية غير مضطربة . أما هذه فهى جميلة ، وهى امرأة بكل مافيها من لطافة ، وظهرت فى عينيها الطوياتين علامات التألم وطفرتا بالدموع التى لم يكن لها الوقت الكافى لتجف ، فظهرتا رطبتين لامعتين نافذتين إلى القلب ، فالصدر والقلب قد حافظا على اعتدالهما وجمالهما

وشعرها الذى كان فيما مضى مجعداً مجمماً أصبح الآن مرسلا . خصلة منه على ظهرها والثانية على على كتفها وذراعها وصدرها

لقد طرأ عليها تغير عام . واجتهد أندريه أن يتذكر شيئاً فى فتاته الأولى يشابه التى أمامه ولكن عبثاً حاول . لم تبق فى ذاكرته إشارة واحدة تنطبق على هذه

وبالرغم من أنها لم تحافظ على جمالها القديم فقد زادها اصفرارها جمالاً عن ذى قبل ، جمالاً لا يقدر ولا يقارن

وشعر أندريه بخوف واحترام فى قلبه وبقي لا يبدى حراكا . وهي أيضاً بقيت متأثرة بمشاهدة الشاب القوزاق الذى ظهر لها فى أبهى صورة لجمال الرجل الشاب وقوته . وعلى الرغم من سكونه فقد تأجج صدره بشتى العوامل ، ولمعت عيناه ببريق الشدة، وتجمع حاجباه على شكل نصف دائرة فدلا على جرأته وإقدامه . ولمعت عيناه بقوة وكذلك شارباه السوداوان اللذان يشبهان الحرير

— كلا، ليس لدى وسيلة يمكننى أن أشكرك بها أيها الفارس النبيل . قالت ذلك وصوتها الفضى يتهدج ... إن الله وحده يستطيع أن يكافئك ... ليس ذلك فى مقدورى ، أنا المرأة الضعيفة ...

وخفضت عينيها وحجبتهما تحت جفنيها المسلحين بأهداب طويلة كالسهام . . . ونكست رأسها واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة

لم ينبس أندريه بكلمة ... أراد أن يظهر ما يضمر أراد أن يتكلم بتلك القوة والحرارة اللتين فى قلبه ولكنه لم يفلح ، وأحس بشىء يمسك شفتيه ويحبس صوته

أحس بأن ليس له ، وهو الذي انتظم فى الحياة العسكرية الحربية وتعلم في المدرسة ، أن يجاوب في مثل هذه الظروف التترية

عندئذ دخلت التترية الغرفة وقد قطعت الخبز الذى أحضره الفارس إلى قطع صغيرة وأحضرته فى صحيفة من فضة وضعته أمام سيدتها

نظرت الفتاة إلى الخبز ثم رفعت بصرها إلى أندريه وكان فى نظراتها معان كثيرة ، وهذه النظرات التى كانت تقول بالمستحيل وعدم القدرة على إظهار العواطف المتيقظة ، فهمها أندرية وأدرك معناها أكثر من إدراكه أى حديث آخر

وفجأة تذكر أنه أصبح حراً ؛ وأن حركاته وشعوره لم يعودا مقيدين كما كانا من قبل ، وتحفزت نفسه للكلام ، وفتح فمه يريد أن يرسل أقواله كالسيل المنهمر ...

لكن الفتاة الجميلة أدارت رأسها نحو التترية وقالت لها : وأمى ؟ هل أحضرت لها شيئاً ؟

— هي نائمة

— وأبي ؟

— قدمت إليه الطعام وقال إنه سوف يأتى بنفسه ليشكر الفارس

وتناولت الفتاة قطعة من الخبز حملتها إلى فمها بين أصابعها الدقيقة . ونظر إليها أندريه وهى تقطعها بأسنانها ... وفجأة ذكر ذلك الرجل الذى لقيه فى الطريق وهو يكاد يموت جوعاً ، وذلك الذى أسلم الروح وهو يزدرد اللقمة التى ألقاها إليه

علت وجهه صفرة ثم أمسك بذراعيها وصرخ :

« كفى ! لا تأكلى أكثر من ذلك . مر عليك زمن طويل لم تذوقى طعاماً . وربما سبب لك الخبز ضرراً !

تركت يدها تقع ووضعت قطعة الخبز ثم نظرت إلى عينيه بهدوء نظرة الطفل ، ولم تنطق بكلمة

لا يمكن لمنحت المثال ولا لريشة الرسام ولا لفعل مهما قوى أن يعبر عما تكنه نظرة فتاة

صرخ أندريه وهو يمتلئ قوة روحية وعاطفه قلبية : تاريتزا [1] ماذا تريدين ، ما يلزمك ؟ عربني أن أعمل شيئاً لا يقدر على عمله الرجال اطلبي مني المستحيل اسرع إلى إنجازه . اذهب إلى الموت ، والموت في سبيلك عذب شهي لدى

عندي ثلاث مزارع ،ونصف قطعان والدى هي ملكي، وكل ما أحضرت والدتي لوالدى ، وما تحبي له أيضاً . كل ذلك لي ، وعندى أسلحة ليس لأحد من القوزاك مثلها

إني أخرج عن هذه الأشياء . أني أترك كل ذلك : أرميه ، أحرقه ، ألقيه في الماء عندما تلفظين كلمة واحدة ، بل وأقل من كلمة : عندما تحركين حاجبك الأسود الدقيق . ولكني اعلم أن عزمي هذا ربما كان جنونياً . هل عبث كل ذلك ؟... أو ليس لي الحق وقد أمضيت حياتي في (زابور وجيه) أن أتكلم أمامك كما يتكلم الناس أمام الملوك والأمراء؟

أرى أنك مخلوقة إلاهية ، تختلفين عنا تمام الاختلاف ، ولاتشابهك إحدى نساء الأشراف ولا بناتهن . . نحن لسنا صالحين لنكون عبيداً لك ، فقط وملائكة السماء وحدهم يصلحون لخدمتك ! »

بقيت الفتاة مأخوذة بعاطفة سامية لا تنطق بكلمة مصغية كلام الشاب الصريح الخارج من قلب صاف نقي كالمرآة تبين فيها روح الشاب المتأججة ...

أحنت الفتاة رأسها إلى الأمام وألقت شعرها إلى الوراء وفتحت شفتيها ونظرت إليه طويلا ثم أرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة وتذكرت أن أمامها شاباً قوزاقيا له هدف معين وله أب وإخوة ، وكل أهله ومواطنوه واقفون وراءه ناقمين . . . ما أظلم أولئك القوازق الذين يحاصرون المدينة ! وامتلأت عيناها بالدموع فأمسكت منديلها الحريري وألقته على وجهها . . . أما هو فغشيت عينيه سحابة

بقيت كذلك برهة ورأسها الجميل إلى الوراء وشفتها السفلى بين أسنانها العاجية كأنها أحست ذبابة سامة . ولم ترفع المنديل عن وجهها حتى لا يلاحظ الآلام التي تكابدها

قال لها أندريه: قولي كلمة واحدة ... ؛ وأخذها بين ذراعيه وأحس بنار تسري في عروقه ، وضغط على اليد التي بقيت بلا حراك بين يديه ...

لكنها ظلت ساكنة لا ترفع المنديل المسدل على وجهها ولا تأتي بحركة فقال :

— لماذا أنت هكذا حزينة ؟ قولي لماذا أنت حزينة ؟

فألقت المنديل جانباً ورفعت خصلات الشعر التي سالت على عينيها وأخذت تنطق بكلمات ممزوجة بتنهدات في صوت ضعيف شبيه بالهواء المنبعث آخر النهار في الأصقاع الممتدة وأكوام القصب المترامية عند مجاري المياه؛ أصوات خفيفة ترتفع مدمدمة ، ويقف المسافر يصغي إليها بآلام شديدة ... لا يشعر

(١) كلمة روسية معناها ملكة صغيرة

بالنهار الذى يولى ... ولا بالأغانى البهيجة المتصاعدة من أفواه الفلاحين العائدين من أعمالهم فى الحقل

— ألست جديرة بحنان دائم ؟ أليست شقية تلك الأم التى وضعتنى فى هذا العالم ؟ هل قدر لي أن أحيا حياة مرة ؟

ألست أنت الباعث على آلامي أيها القدر القاسى ؟ لقد وضعت تحت قدمى أعظم رجال البلاط وأغناهم وأشرفهم ، وكلهم من الملاك والمثرين ، وكلهم كان يتمنى أن يحبنى ؛ وكلهم حسب حبي فوزاً عظيما له ، ولم يكن على إلا أن أشير إشارة صغيرة حتى يصبح أكثرهم مالاً وأجلهم وجهاً وأرفعهم حسباً زوجاً لى

عجيب أمرك أيها القدر القاسى ، لم تجعل قيادى لأحد ! من رجالنا ولكنك جعلتنى أسيرة لغريب . . . لعدو . . .

لأى سبب أيتها الأم الالهية المقدسة[1] ومن أجل أية خطيئة تتبعيننى هكذا بدون شفقة ولا رحمة ؟

لقد مضت أيامى رغيدة طيبة ، لا أتناول طعامى إلا فى أثمن الآنية ، ولا أشرب خمورى إلا فى كأس مترعة ... فلم تبدل كل هذا ؟ الأجل أن أموت ميتة أفقر رجل فى المملكة ؟ ولم يكف أن قدر لى مثل هذا الحكم . لم يكف أننى قبل أن أموت يجب أن أرى أمى وأبى على شفا حفرة من الموت من العذاب أشده . كل ذلك لم يكف ، وأهلى يريدون تسليم المدينة التى أدفع ثمنها حياتى عشرين مرة ... أوجب على وأنا أقرب من نهايتى أن أرى ... وأسمع أحاديث حب لم أسمع بمثلها من قبل أبداً ، وأن أشعر بهذه الأحاديث تمزق قلبي وتزيد فى حرارة ماقدر لى ، وأن آسف على حياتى الشابة الأولى . . . وأن أرى قسوة الموت ، وأن أبغضك وأكرهك وألعنك أيها القدر ... اغفرى خطيئتى ومذلتى أيتها الأم الإلهية المقدسة »

وعند ما سكتت ظهرت على وجهها علامة غير منتظرة ، كل ملامح وجهها تكلمت ، وكل شىء فيها : من جبهتها المنهوكة وعينيها المليئتين بالدموع التى تسيل وتبرد وتجف على خديها المنتفخين قليلا كل شىء كان يقول : «لا سعادة فى هذا الوجه !»

— قال أندريه : لم يسمع أحد بمثل هذا فى العالم بعد . إن من المستحيل أن يكون ذلك . إن من المستحيل على أجل امرأة فى العالم أن تتحمل مثل هذه الآلام ، إنها لم تخلق إلا ليركع أمامها الحب كما يركع أمام تمثال العذراء . . . كلا ، لن تموتى . أقسم لك بيوم ميلادى وكل شىء عزيز على فى العالم أنك لن تموتى . وإذا قدر ذلك ولم يمكن تجنبه لا بالقوة ولا بالصلاة ولا بالارادة القوية ، فلتمت معاً ، ولأكن أول من يموت تحت قدميك

— فقالت له وهى تحرك رأسها بهدوء : لا تخدع نفسك ولا تخدعنى ، أنا أعلم أن ذلك هو شقائى الأعظم ، أنا أعرف أن من المستحيل عليك أن تحبنى . أنا أعرف واجبك وإيمانك : أبوك وإخوانك ووطنك كلهم يدعونك ، أما نحن فلسنا الا أعداءك ... !

— فقال لها : وماذا يهمنى من أمر أبى وإخوانى ووطنى ؟ ثم ونهض بقامته الطويلة

(١) Saive Mére Ditnine

كشجرة الحور عند أطراف الغدير : وإذا كان الامر كذلك فليس لى أحد ، ليس لى أحد أبداً...

كرر ذلك بصوت عال محركا يده حركات رجل قوزاق عنيد مصمم على رأيه

... من قال إن أوكرانيا هى وطنى ؟ ومن أعطانى إياها وطناً ...؟ الوطن هو الخير الذى تبحث عنه أرواحنا ، وهو أعز ما لديها . وفوق كل شىء وطنى هو أنت ، هاك وطنى وسأحمله . سأحمل ذلك الوطن بين حنايا قلبى ، سأحمله إلى اليوم الذى تحين فيه ساعتى ، وسوف نرين إذا حاول أحد القوازق أن ينتزعه من هنا ...

وكل ما لدى كل ما أملك ، أبيعه ، وأحرقه ، ألقيه فى الماء من أجل هذا الوطن !

ظلت الفتاة برهة مأخوذة بكلماته ، كأجل تمثال ، تنظر إلي عينيه ، ثم أجهشت بالبكاء وارتمت عليه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، كأجل امرأة لها قلب كبير خلقت للحوادث الكبيرة ، وظهرت بذلك المظهر النسائى الذى لا يمكن لواحدة غيرها أن تظهر به

عندئذ سمع صوت طبول وحركة غير اعتيادية صادرة من الشارع ، لكن أندريه لم يسمع شيئاً ، لم يشعر بغير الشفتين تنعدقان عليه من رحيقهما المعسول ، وتردد أنفاسهما العذبة ، ودمعها الذى سال على خديها ، وشعرها العطر الذى أحاطه وغطاه بكامله بين لمعان حريره الأسود

دخلت التتر في هذه البرهة وهى تجرى وتصيح قائلة : « لقد نجونا ، نجونا ، لقد عاد رجالنا . لقد أحضروا خبزاً وطحيناً وشعيراً ، وقد أحضروا معهم بعض أسرى الزابورجيين ! لكنهما لم يسمعا شيئاً ، لا هى ولا هو ، ولم يعرفا عن أى رجالنا تتكلم التترية ولا عن أى أسارى ...

أما أندريه فلم يعد يشعر بغير الشفتين المعطرتين الملتصقتين بخده ، والشفتين المعطرتين تقابلانه بالمثل . وفى هذه القبلات المتبادلة شعر أندريه بما يحق للرجل أن يشعر به ولو مرة فى حياته « ... لقد ضاع ذلك القوزاق ، وأضاع فروسيته القوزاقية . إنه لن يرى بعد اليوم « زابورجيه » أبداً ولا مزارع والده ولا كنيسة الرب

وكذلك « أوكرانيا » ! إنها لن ترى بعد اليوم أشجع أبنائها الذى أخذ على عاتقه الدفاع عنها

أما الأب « بولبا » فقد جز شعره الأبيض من خجله ، ولعن الساعة التى رزق فيها مثل هذا الابن

ابراهيم زيد الدين

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالاثمان الآتية

٥٠	السنة الأولى فى مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع البدرلى - عابدين ﴾